فلسفة الحياة عند برنارد ماندفيل

مصطفى فواز صديق مناع

تطور حياة ماندفيل الفكرية:

برنارد دي ماندفيل أو برنارد ماندفيل كما إختار أن يطلق على نفسه في وقت لاحق؛ هو طبيب وفيلسوف هولندي وعالم اقتصاد سياسى وكاتب ساخر. ولد فى روتردام بهولندا أو بالقرب منها (وفى رواية أخرى دوردريخت) في ٢٠ نوفمبر ١٦٧٠م[١]. ثم التحق بمدرسة إيراسمان حتى أكتوبر ١٦٨٥م. وعندما التحق بجامعة ليدن ظهرت عبقريته وذكائه وأعلن عن نيته في تكريس نفسه لدراسة الطب، ومع ذلك تم تسجيله في العام التالي كطالب في الفلسفة عام ١٦٩٠م، وكان لا يزال طالبًا في الجامعة نفسها[٢].

فقد ولد ماندفيل في وسط عائلة من الأطباء والقضاة الهولنديين[٣]. وكان للوراثة الدور الكبير في عبقريته؛ فمنذ القرن السادس عشر كانت أصول أو أفراد عائلته من جانب والده بارزين ومشهورين؛ فكان منهم حُكام للمدينة ومنهم العلماء والأطباء (فكان والده وجده وجده الأكبر من الأطباء البارزين)، وكان أقرباء والدته ضباط بالبحرية[٤].

انتقل إلى انجلترا لتعلم اللغة، وهو ما نجح فيه بشكل فائق وجعله سعيدًا للغاية، وفي الوقت نفسه فقد وجد البلاد وآدابها مقبولة بالنسبة له، حتى إن الكثيرين من الإنجليز لم يصدقوا أبدًا أنه أجنبي... وعاش معظم حياته فى انجلترا وكتب ونشر أغلب أعماله بالإنجليزية[٥]. وبلغته الإنجليزية الرصينة ذات الجمل الطويلة –التى تمتد فى كثير من الأحيان لتغدو فقرة كاملة– قدم أفكاره مرصعة بالأمثلة والقصص والحوارات المُتَخيَّلة والإشارات التاريخية المليئة بالسخرية وأحيانًا بالتعريض والهجاء لمعارضيه المتوقعين ومن يخالفهم الرأى من الكُتَّاب المعاصرين أو السابقين[٦]. فهو يمتلك لغة أو أسلوبًا خاصًا به؛ من حيث تعمق عباراته الطويلة والمعقدة والجميلة في كلٍ من مؤلفاته التي لا تزال تبهرنا، وكذلك مزجه الفريد بين الواقعية والتجريبية والإتجاه

(١) ماندفيل، برنارد: ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة، ترجمة: عبدالرحيم يوسف، دار صفصافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٨م، المقدمة، ص ٧.

(1) Mandeville,Bernard: The Fable of the Bees or Private Vices, Publick Benefits, 2 vols, With a Commentary Critical, Historical, and Explanatory, by: Frederick Benjamin Kaye, Oxford: At the Clarendon Press, MDCCCCXXIV, A Project Of Liberty Fund, Inc, Vol. 1, 1988, p. 11.

(2) Cook, Harold J.: Bernard Mandeville and the Therapy of "The Clever Politician", University of Pennsylvania Press, Journal of the History of Ideas, Vol. 60, No. 1, 1999, p. 111.

(3) Mandeville,Bernard: The Fable of the Bees or Private Vices, Publick Benefits, 2 vols, With a Commentary Critical, Historical, and Explanatory, p. 11.

(4) Op.cit. Loc.cit.

(5) ماندفيل، برنارد: ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة، المقدمة، ص ص ١١-١٢.

المحافظ والشك المعتدل، وعبقريته في فحص تعقيدات الآليات الاجتماعية بشكل خيالي[٧]. وبالتالي فمن الممكن أن نثني على أسلوبه من خلال جودة وسهولة لغته الإصطلاحية وقربها من الحياة[٨].

ومن أشهر أعماله هو كتابه "خرافة النحل" الذى كانت بدايته قصيدة شعرية مكونة من مائتى مقطع بعنوان "الخلية المتذمرة أو الأشرار ينقلبون شرفاء" نشرها عام ١٧٠٥م... ثم أعاد نشرها عام ١٧١٤م كجزء تكميلى لكتابه "خرافة النحل: الرذائل الخاصة والمنافع العامة"[٩]. كما أن له كتابًا طبيًا واحدًا ألا وهو مقالة عن عاطفة هيبوكوندريك وهستيريك A Treatise of the Hypochondriack and Hysterick Passions, Vulgarly. وهو كتاب جيد ومليء بالملاحظات الجادة والنصائح السليمة[١٠]. وكذلك له "أفكار حرة حول الدين"،وفي عام ١٧٣٢م قدم "بحث في أصل الشرف وفائدة المسيحية في الحرب"، وفي وقت لاحق من العام نفسه أنتج عمله الأخير "رسالة إلى ديون"[١١].

ويبدو أن ماندفيل لم يصبح قط ثريًا أو بارزًا كطبيب، وهذا ما شرحه في كتاباته: "إنني بطيء بطبيعتي، ولم يعد بإمكاني الكشف على أكثر من إثنى عشر مريضًا في اليوم الواحد[١٢]. ومن ثم لا تتبع شهرته من كتاباته الطبية أو ممارسته لها، ولكن من أعمال مختلفة نشرها في القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية... فضلًا عن تحفته الفكرية "خرافة النحل". فقد صرح طوال الوقت بأن رذائل الأفراد تساهم في فائدة المجتمع بأسره. ومعارضة الحكم الأخلاقي المشترك بأنه من الأفضل أن تكون مقتصدًا أكثر من إستهلاك منتجات باهظة الثمن، وأوصى بالإستهلاك الضرورى ودافع عن التجارة الحرة، ولكنه إعتقد –أيضًا– أن قيمة صادرات إنجلترا يجب أن تتجاوز قيمة وارداتها؛ ونتيجة لذلك أصبح يُنظر إليه على أنه مدافع عن مبدأ عدم

(7) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), Studies in History and Philosophy of Science, Volume 40, Springer Cham Heidelberg New York Dordrecht London, 2015, p. 111.

(8) Bredvold, Louis I.: The Fable of the Bees: Or Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville and F. B. Kaye, The Journal of English and Germanic Philology, University of Illinois Press, Vol. 24, No. 4, 1925, p. 587.

(9) ماندفيل، برنارد: ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة، المقدمة، ص ٨.

(10) Clark, George: Bernard Mandeville, M. D., And Eighteenth-Century Ethics, The Johns Hopkins University Press, Bulletin of the History of Medicine, Vol. 45, No. 5, 1971, p. 433.

(11) Mandeville, Bernard: A Treatise of the Hypochondriack and Hysterick Diseases (1730), Editor: Sylvie Kleiman-Lafon, University of Paris VIII, Saint-Denis, France, International Archives of the History of Ideas 223, Springer International Publishing, AG, 2017, p. 2.

(12) Clark, George: Bernard Mandeville, M. D., And Eighteenth-Century Ethics, p. 432.

التدخل والممارسات التجارية[١٣]. فكان جدل ماندفيل هو أنه إذا أراد المرء مزايا التجارة؛ فيجب عليه أن يتقبل آثارها الجانبية الضرورية غير المرغوب فيها[١٤].

فقد قام ماندفيل بعمله الأكثر إبداعًا وأنتج هذه التحفة الفلسفية، إن صح التعبير، وذلك في غضون وقت قريب من بداية شيخوخته. وهذا العمل يعد في حد ذاته إنجاز تناوله في القرن الثامن عشر كانط؛ أحد المعجبين العظماء بخرافة النحل، وهذا بالنسبة لجمهوره المعاصر، أما بالنسبة للجيلين التاليين من المثقفين الأوربيين فكانت كنية ماندفيل بأنه الشخص الذي كتب كتابًا سيئ السمعة[١٥]. فقد أثار الكتاب اعتراضات قوية حتى أنه خضع لدعوى قضائية عام ١٧٢٩م بتهمة النزعة غير الأخلاقية، واعتبرته هيئة المحلفين الكبرى فى ميدلسكس كتابًا مزعجًا، وأنه يميل إلى التخريب الكلي للدين والحكومة المدنية وواجبنا تجاه الله وحبنا لبلدنا، وقد هاجمه العديد من الكُتَّاب[١٦].

وهناك من إنتقد الخرافة على وجه التحديد؛ بحجة أن هيئة المحلفين الكبرى أخبرت أن الخرافة تم تصميمها "لإهانة أو للإنقلاب على الدين والفضيلة وأنها مضرّة بالمجتمع وتضرّ بالدولة(*)[١٧]. فضلًا عن أنها توصي بالكبرياء، الشجاعة، الرفاهية، الجشع، الفخر، وجميع الرذائل باعتبارها ضرورية للصالح العام[١٨].

فقد قدمت أسطورة "خرافة النحل" مرتين من قِبل هيئة المحلفين الكبرى في ميدلسكس إلى محكمة الملكية العامة؛ كمصدر إزعاج عام فضلًا عن مقاضاة ناشرها. وأن الكتاب لم يخضع للرقابة مطلقًا... ثم تم شجب خرافة النحل على الفور من قِبل مجموعه كبيرة من رجال الدين والصحفيين والفلاسفة؛ الأمر الذي أثار دهشته وسعادته، ومن ثم وجد ماندفيل نفسه من المشاهير الوطنيين[١٩]. وقد نال ماندفيل أفضل مؤلف عن خرافة النحل[٢٠]. وفي الواقع سيكون من الصعب التغاضى عن مدى شهرة ماندفيل في القرن الثامن عشر[٢١].

(13) Primer, Irwin: Bernard Mandeville's "A Modest Defence of Publick Stews", Prostitution and Its Discontents in Early Georgian England, Palgrave Macmillan, First published, 2006, p. 1.
(14) Miller, Peter N.: Citizenship and Culture in Early Modern Europe, University of Pennsylvania Press, Journal of the History of Ideas, Vol. 57, No. 4, 1996, p. 739.
(15) Mandeville, Bernard: A Treatise of the Hypochondriack and Hysterick Diseases (1730), p. 2.
(16) Clark, George: Bernard Mandeville, M. D., And Eighteenth-Century Ethics, p. 436.
(*) "to run down Religion and Virtue as prejudicial to Society, and detrimental to the State".
(17) Speck, W. A.: Bernard Mandeville and the Middlesex Grand Jury, The Johns Hopkins University Press. Sponsor: American Society for Eighteenth-Century Studies (ASECS), Vol. 11, No. 3, 1978, p. 362.
(18) Mandeville, Bernard: A Treatise of the Hypochondriack and Hysterick Diseases (1730), p. 8. And see, Drennon, Herbert: Bernard Mandeville, High Priest of Paradox, p. 17.
(19) Ibid., p. 1.
(20) Gibson, Daniel Z.: A Critical Edition of the Poems of Bernard Mandeville, A dissertation submitted to the Graduate School of the University of Cincinnati in

فقد جذب ماندفيل الإنتباه من خلال تفكيره الجريء[٢٢]. وقد عملت آراءه الأدبية الجريئة على تصنيفه على أنه من أذكى وأخطر العلماء في عصره[٢٣].

فقد أكتسب ماندفيل شهرة كبيرة من خلال كتابه "خرافة النحل: الرذائل الخاصة والمنافع العامة؛ ذلك الكتاب الذي يوصف بأنه "الأذكى والأمهر في الكتابات الإنجليزية"... ومن ثم أدى إلى إزدهار اسمه أكثر وأكثر. ثم كتب عندما يدخل الغرور إلى النحل، وأيضًا عندما يتحول النحل الشرير إلى مبدع؛ فإن طرق النحل ليست في طريقة الإنفاق، ولكن في كيفية العيش وطريقة مواجهة حقيقة تضاءل الخلية الكبيرة وتحولها إلى خلية فقيرة وقليلة من أجل تحقيق هدف أسمى[٢٤]. وقد تم وصف الخلية على أنها مثل أي نفس بشرية مكونة من مجموعه من العناصر متمثلة في الأنانية، التفاخر، الطموح، الشر، والخيانة.

وبعد وفاة المؤلف بوقت قصير قام الناشرون بإصدار الكتاب عام ١٧٥٥م، وظهرت له ترجمات في فرنسا وألمانيا. وقد ظهرت هذه الكتابات تحمل صفحة عنوان مزيفة تُنسب إلى يعقوب تونسون، فضلًا عن أن جميع الإصدارات السابقة قد ظهرت مجهولة المصدر[٢٥].

وهناك بعض الأطروحات الأكثر شيوعًا والتى تناولت أهمية ماندفيل بإعتباره ساخرًا من الأخلاق والآداب في عصره... وقد تم تصنيفه أيضًا على أنه مؤلف وكاتب سياسي ساخر، وكمصدر معروف وسلف لبعض المذاهب؛ مثل مذهب آدم سميث بإعتباره رائد علم الاجتماع[٢٦].

لقد كان رد فعل معاصري ماندفيل مفجعًا بشكل كبير؛ لأنهم قالوا أنه كان غير أخلاقي ومثير للسخرية وأنه يدفع إلى الرذيلة، كما أنه قوض أسس المجتمع، وعكس تمامًا أدوار الخير

partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, 1939, p. v.

(21) Mandeville,Bernard: The Fable of the Bees or Private Vices, Publick Benefits, 2 vols, With a Commentary Critical, Historical, and Explanatory, p. 51.

(22) Anderson, Paul Bunyan: Bernard Mandeville on Gin, Modern Language Association, PMLA, Vol. 54, No. 3, 1939, p. 775.

(23) Perry, C. M.: Review: The Fable of the Bees by Bernard Mandeville and F. B. Kaye, The University of Chicago Press, International Journal of Ethics, Vol. 36, No. 4, 1926, p. 432.

(24) Mandeville, Bernard: Mandeville on the Sources of Wealth, Population Council, Population and Development Review, Vol. 17, No. 2, 1991, p. 325.

(25) Reed, A. W.: Review: The Fable of the Bees: Or, Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville, Oxford University Press, The Review of English Studies, Vol. 1, No. 3, 1925, p. 368.

(26) Mandeville, Bernard: Free Thoughts on Religion, The Church & National Happiness, edited by: Irwin Primer, Transaction Publishers, New Brunswick (U.S.A.) and London (U.K.), 2001, p. i, ii.

والشر، وأنه بإختصار شيطان يمشي على الأرض... فقد أمضى ماندفيل السنوات الأربع والعشرين التالية من حياته وهو يشرح ويبرر ويدافع عن هذا الجزء من الفكرة، ولكن يبدو أنه كلما أوضح فكرته كلما أسيء فهمه أو على الأقل زاد تعرضه للهجوم(٢٧).

ويمكن وصف مصطلحات ماندفيل اليومه بأنها خليعةLibertine، إن صح التعبير، وتم دعوته أو وصمه بالخليع وأن فكره هدام(٢٨). وقد تم اعتباره من قِبل العديد من القراء بأنه عديم التقوى، وأنه محتال وضيع، وحقير للغاية لدرجة أنه لا يمكن اعتباره إنسانًا(٢٩).

ولا يمكن للمرء أن ينكر أن العديد من أفكار ماندفيل تشبه أفكار بيير بايل، وأن سمعة بايل قد تكون مسئولة بقدر كبير عما وصفت به أفكار ماندفيل... فكان لإرتباطه بـ"بايل" سببًا كافيًا لكرهه؛ لأن بايل شق طريقه عن طريق مهاجمة المعتقدات(٣٠). فقد استنتج بايل أن الدين ليس له تأثير على السلوك البشري، وأن الإنسان لا يتصرف أبداً وفق المبادئ والمعتقدات؛ فهي قصص يصنعها لتفسير النزاع بين العادات والمتعة الجسدية. كما يرى أن السلوك البشري يتحدد فقط من خلال توزيع الأوسمة في المجتمع السياسي... ومن ثم يعد ماندفيل هو الوريث الفكري للمتشكك الكبير بايل(٣١).

صدمت كتابات ماندفيل بشدة معاصريه، بل كانت آرائه صادمة للرأى العام، ولم تفلخ كتاباته الأخيرة فى أن تقلل من حدة هجوم منتقديه(٣٢). وكثيرًا ما وصف منتقدو ماندفيل كتاباته في وقته وحتى القرن العشرين بأنها صادمة ومبتذلة... ومع ذلك حدد الجمهور الذي يكتب له، واتخذ موقفًا متحيزًا محاولًا فصل نفسه عن الجماهير العامة وإبتذالهم... لذلك ذهب إلى أنه لا يتوقع إستحسان الجمهور، وأنه لا يكتب للكثيرين

(27) Primer, Irwin: Mandeville Studies, New Explorations in the Art and Thought of Dr. Bernard Mandeville (1670-1733), Rutgers University, Newark, Martinus Nijhoff, The Hague, 1975, p. 194.
(28) Bredvold, Louis I.: The Fable of the Bees: Or Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville and F. B. Kaye, p. 588.
(29) Anderson, Paul Bunyan: Bernard Mandeville on Gin, p. 775.
(30) Primer, Irwin: Mandeville Studies, New Explorations in the Art and Thought of Dr. Bernard Mandeville (1670-1733), p.194, 195.
(31) Slack, Kevin Lee: Benjamin Franklin and The Science of Virtue, A Dissertation Submitted to The Graduate Faculty of the University of Dallas in Partial Fulfillment of Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy In Politics in the Institute of Philosophic Studies, the Braniff Graduate School of the University of Dallas, April, 2009, p. 48, 49.
(32) Coats, A. W.: The Social Thought of Bernard Mandeville. Virtue and Commerce in Early Eighteenth-Century England. by Bernard Mandeville and Thomas A. Horne, The Historical Journal, Cambridge University Press, Vol. 21, No. 4, 1978, p. 1012.

ولا يبحث عن أيًا من المهنئين، ولكن من بين القلائل الذين يمكنهم التفكير بشكل تجريدي وترتفع عقولهم فوق الإبتذال[٣٣]. وبالتالي فلا يمكن فهمة بالكامل إلا إذا كان لدى القارئ خلفية مسبقة عنه[٣٤].

حيث إنه هو نفسه ذهب إلى القول في ذلك "إنني أحتاج من القارئ مزيد من الصبر، وأن يتصف بالمثابرة في تصفح ما سأقوله"[٣٥]. بل ويزيد فيقول إن ضميرى يلزمني أن أطلب العفو من قارئي عن الرقصة المتعبة التى سأقوده إليها إذا كان ينوى متابعتي، ولذلك أتمنى إما أن يلقي بالكتاب بعيدًا ويتركني أو يسلح نفسه بصبر أيوب كى يتحمل جميع سفاهات الحياة الوضيعة والرياء والثرثة التى من المحتمل أن يقابلها[٣٦].

وفي الواقع إذا تمكنا للحظة من التحقق من أن فكر ماندفيل يصدم ويقاوم خصومه، لا يسعنا إلا أن نقر ونعترف بأن هذه التناقضات والمبالغات لا يجب أن تحجب كليًا مساهماته الأصيلة والبناءة في فكر عصره. ويشير البروفيسور كاي إلى أنه يبدو من غير المقبول أن يجعل ماندفيل الرذائل الخاصة أساسًا لا غنى عنه للإزدهار العام، حيث يغفل الدوافع التي ينص عليها العقلانيون والدين، ومن ثم فهى بذلك غير متسقة مع التنظيم الاجتماعي. ومما لا شك فيه أن بطولة ماندفيل لقيادة هذا الفكر وتحليل الطبيعة البشرية والمجتمع كما هم في الواقع؛ لعبوا دورًا مهمًا في خضوع التكهنات اللاهوتية إلى الدراسة التجريبية[٣٧].

ورغم إبراز البروفيسور كاي وإشارته إلى عدد كبير من الإنتقادات لماندفيل إلا أنه يرى أن فكر ماندفيل هو تمرين عقلي مسموع للعديد من الكُتاب المهمين. ويظهر تأثيره تحديدًا على آدم سميث الذي يرى أنه كان مدينًا لماندفيل في بعض مذاهبه الإقتصادية[٣٨].

(33) Primer, Irwin: Bernard Mandeville's "A Modest Defence of Publick Stews", Prostitution and Its Discontents in Early Georgian England, p. 107.

(34) Mandeville,Bernard: The Fable of the Bees or Private Vices, Publick Benefits, 2 vols, With a Commentary Critical, Historical, and Explanatory, p. 21.

(35) Mandeville, Bernard: An Enquiry into the Origin of Honour and the Usefulness of Christianity in War, Produced by: David King, Stan Goodman, and Charles Franks, The Project Gutenberg EBook, 1971, p. 2.

(36) Mandeville, Bernard: The Fable of the Bees or Private Vices, Publick Benefits, with an Enquiry Into The Origin Of Moral Virtue, and, Essay On Charity And Charity-Schools, and, A Search Into The Nature Of Society, To which is added A VINDICATION of the BOOK from the Afperfions contain'd in a Prefentment of the Grand-Jury of Middlefex, and an abufive Letter to Lord C, Printed for J. Tonson, at Sbakefpear's-Head, over-againft Katharine-Street in the Strand, LONDON: MDCCXXIV, The Third Edition., p. 314. الترجمة العربية، ص ص ١٠٢-١٠٣.

(37) Perry, C. M.: Review: The Fable of the Bees by Bernard Mandeville and F. B. Kaye, p. 432.

(38) Ibid., p. 434.

وتبدو وجهة نظره أكثر حدة عند مقارنتها بآراء آدم سميث (١٧٢٣ – ١٧٩٠م)، فكلاهما يؤمن بأن أفعال الأفراد الجماعية تجلب المنفعة العامة، لكن ما يفصل بين فلسفة الاثنين هو العامل المحفز لتلك المنفعة، فبينما كان سميث يعتقد أن وراء هذا التعاون غير المرئى اهتمام شخصى ذو طبيعة خيِّرة، رأى ماندفيل أن ما يدفع نحو ذاك التعاون هو الطمع الشرير[٣٩].

أسلوب ماندفيل في الحياة:

عُرف ماندفيل بالفيلسوف الصعب، وليس من الصعوبة بمكان معرفة السبب في هذه التسمية؛ أولاً: لأنه شرع عمداً في إحداث مفارقات. ثانيًا: لأنه ليس كاتبًا منهجيًا؛ فتم شرح آرائه وتطورها في عدد من الأعمال التي لا يُعرف منها سوى خرافة النحل. ثالثًا والأهم من كل ما سبق: إنه ليس فيلسوفًا فقط بل هجائيًا أيضًا، حيث يتشابك هجاءه مع نظرياته الفلسفية البحتة، فضلًا عن أسلوبه في كثير من الأحيان ساخر للغاية، حيث إن كل أفكاره الفلسفية تُعالج بطريقة ساخرة[٤٠].

لم يمارس ماندفيل السخرية فحسب، بل أشكال أخرى غير مباشرة في تعبيراته، حيث يتم فيها نقل المعنى من خلال القصة والحوار، فقد كان صانع عبارات خصبة، ومن ثم يمكن للمؤلف الإختباء وراء شخصياته... ولكن مع ماندفيل أصبحت كل هذه الأشكال معتادة جدًا لدرجة أنه من الصعب التأكد من أنه إذا كان، في أي وقت، يتحدث عن رأيه أم لا، حيث إنه استمتع بلعب الحيل على قرائه[٤١].

إن ماندفيل وكتابه عن خرافة النحل أصبح أكثر من مجرد اسم عفى عليه الزمن منذ فترة طويلة، بل كان للكتاب تأثير إستثنائي عبر تاريخ الفكر؛ تأثير تعدى النطاق المحلى وإتسع ليصل إلى النطاق الدولى. فقد أظهر تأثيره أنه شخصية عظيمة لمفكر من القرن الثامن عشر، ولا يزال تأثيره سارى حتى الآن في الواقع المعيش.

وبذلك لا يمكن لأحد أن يقرأ أطروحة ماندفيل دون الإعجاب بها؛ أولًا بسبب لغته الإنجليزية العامية المفعمة بالحيوية على الرغم من أنه أجنبيًا مثل السيد سانتيانا وغيره ولم يكن على دراية باللغة إلا منذ وقت

(39) ماندفيل، برنارد: ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة، ص ٩.

(40) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, Cambridge University Press on behalf of Royal Institute of Philosophy, Vol. 47, No. 180, 1972, p. 125.

(41) Clark, George: Bernard Mandeville, M. D., And Eighteenth-Century Ethics, p. 436.

قريب. ثانيًا دقته غير العادية في التحليل النفسي القائم على ملاحظة دهاء وفكاهة السلوك البشري، فعلى سبيل المثال ما الذي يمكن أن يكون أكثر متعة من تحليله لسلوك التاجر البائع مع زبونته الشابة[٤٢].

من الصعب معرفة ما إذا كان القارئ الذي يقرأ لماندفيل لأول مرة هو أكثر إعجابا بنضارة أسلوبه أو بحيوية فكره. وبذلك إذا كان الفكر هو الشيء الذي يثير الإعجاب، فإنه يفعل ذلك –إلى حد كبير– لأنه يطرح فكره بأسلوب يتم فيه الجمع بين أكثر التعابير قوة وحِكمًا سديدة مع التحكم في الإيقاع والنبرة، وهو أسلوب يجمع فيه بين العامية والبلاغة في وقت واحد، مع الإحتفاظ بتدفق الكلام السهل والمألوف مع بعض الملاحظات الخطابية الثابتة. حيث إنه لا يفشل أبدًا في إجراء أكثر التحليلات تعقيدًا بشكل طبيعي وملموس بحيث يتخطى العقل إلى التعاطف. وعلى الرغم من أنه يفتقر إلى الخفة؛ إلا أنه يتمتع بمزيد من التأثير على الأخرين والإختلاف الذي يكمن في الذكاء والفكاهة. وبذلك فافكارة غنية وواضحة ومقسمة بالتساوي بين التحرر والسرد[٤٣].

حيث إنه يرى من خلال الدعابة اللطيفة ذو البصيرة الحادة أن الإنسان قد يتحصل على وفرة الخير من القمامة التي تفرغ بعيدًا لتجنب الشر[٤٤]. فقد شرح ماندفيل في "خرافة النحل" أن الرذيلة هي أساس الإزدهار الوطني[٤٥].

وعلى الجانب الآخر لم يكن ماندفيل مفكرًا أصليًا من نواح كثيرة. فقد ردد وقلد الكثير من المقاطع المتنوعة. فعلى سبيل المثال هناك مقطع في إحدى مقالات مونتاني "لا يمكن لأي شخص أن يربح إلا بخسارة الآخرين" وغيره من المقاطع أو المقولات مثل "التاجر يزدهر بإسراف الشباب"، "الفلاح بنقص الذرة"، "المهندس المعماري من تدمير المنازل"، و"المحامي بالدعاوى القضائية والخلافات بين الناس"[٤٦].

دعونا نقول مرة أخرى أن ماندفيل لم يكن فيلسوفًا أصليًا بشكل لافت للنظر فيما كان يقوله، ولكن كان يمتلك عبقرية خارقة في تصويره للعبارات بشكل ذكي، وأمثلة مذهلة لبعض الأفكار المعينة، وبفضله وجدت تعبيرات قوية في أعمال معينة تم إنتاجها في فترات لاحقة[٤٧].

(42) Smith, G. C. Moore: The Fable of the Bees: Or, Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville, The Modern Language Review, Modern Humanities Research Association, Vol. 20, No. 4, Oct., 1925, p. 475.
(43) Mandeville,Bernard: The Fable of the Bees or Private Vices, Publick Benefits, 2 vols, With a Commentary Critical, Historical, and Explanatory, p. 21.
(44) Anderson, Paul Bunyan: Bernard Mandeville on Gin, p. 776.
(45) Mandeville,Bernard: The Fable of the Bees or Private Vices, Publick Benefits, 2 vols, With a Commentary Critical, Historical, and Explanatory, p. 24.
(46) Drennon, Herbert: Bernard Mandeville, High Priest of Paradox, Mississippi State University, The Mississippi Quarterly, Vol. 8, No. 4, 1955, p. 20,21.
(47) Ibid., p. 21.

رؤية ماندفيل الأخلاقية للفضيلة والرذيلة في الحياة:

تصور ماندفيل الأخلاق تحت معنى مشابه للفضيلة. الفضيلة المطبقة على الأفعال لتحقيق السعادة والسلام في المجتمع. ومن أجل وصف إستخدام المصطلحات الأخلاقية والسلوكية، يتتبع المؤلف أصلها من اليونانية واللاتينية... وبناء على ذلك تشير الفضيلة إلى السلوك المناسب لضمان "غزو أنفسنا"، بالإضافة إلى معنى "السلطة على شيءٍ أو شخص ما"(٤٨). فكلمة الأخلاق إما أن تكون متزامنة مع الفضيلة أو أنها تدل على ذلك الجزء من الفلسفة (أي تكمن في مبحث القيم الذي يمارسها ويعمل على تنظيمها). وكلمات الفضائل الأخلاقية تعني الشيء نفسه الذي أعتقد أن كل شخص يفعله(٤٩).

ومن ثم يمكن وصف فكر ماندفيل الأخلاقي بأنه "طبيعي"؛ بمعنى أنه يتعامل مع الأخلاق الإنسانية كظاهرة قائمة بالكامل على الطبيعة البشرية. وبتعبير أدق فهو يدعي بأنه يمكن إرجاع تطور السلوك الأخلاقي إلى الكليات الأصلية أو الغريزية التي تم وضعها في الإنسان من قِبل الطبيعة من أجل الغرض النهائي ألا وهو الحفاظ على النوع(٥٠).

ومن هذه الفرضيات العامة توصل ماندفيل إلى إستنتاج بشأن إستخدام مصطلح "الأخلاقي" على أنه إمتداد للدلالة على الأخلاقيات "الفضائل" المعترف بها في بعض أنواع الأفعال، وهذا يعني أن "الفضيلة" صفة عامة وطبيعية وبشرية في المواد أو الأفعال، وهي تمثل القوة أو القدرة على التحكم في الظروف النفسية أو العضوية أو الاجتماعية(٥١).

وبالطبع إذا كان يُنظر إلى الأخلاق على أنها مجموعة من المحظورات التعسفية والتي تمنعنا من فعل ما تطالبنا به طبيعتنا؛ فإن إزالة سلطتها من شأنه أن يدفعنا إلى الأمام، ويبدو أن هذا الإستدلال يعتمد على السخرية من الطبيعة البشرية(٥٢).

(48) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 32.
(49) Mandeville, Bernard: An Enquiry into the Origin of Honour and the Usefulness of Christianity in War, p. 2.
(50) Hoss, Lewis: Reconciling Naturalism and Theology in the Political Thought of Bernard Mandeville, A Thesis Submitted to the Graduate School in Partial Fulfillment of The Requirements for the Degree Master of Arts, Department of Political Science, Northern Illinois University, Dekalb, Illinois, May 2016, p. 7.
(51) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 32.
(52) Monro, Hector: The Ambivalence of Bernard Mandeville, Oxford, Clarendon Press, 1975, p. 178.

إن هذه الفلسفة أو هذا الرأي يجب ألا ينتقص من قيمة الفضيلة الأخلاقية أو أن يكون هناك إتجاه لوصفها بالأسوا... ولكن إذا أطلقنا –مثلًا– كلمة الفضيلة على الذات الأبدية، فلا يمكن أن يتم ذلك دون وجود طريقة رمزية مختلفة للكلمة. ومما لا شك فيه أن كل الحقائق الرياضية مطلقة، ولكنها تُدرس والبعض منها مضلل للغاية، ولم يتم إكتساب معرفتها –أبدًا– دون جهد وفكر عميق(٥٣). إن حب الإنسان الطبيعى للراحة والكسل وميله لإشباع مُتعه الحسية لن تعالجهما المبادئ، ولا يمكن إخضاع عاداته وأهوائه القوية العنيفة إلا عن طريق معاناة عنف أكبر(٥٤). وإننا نتفق مع ماندفيل عندما يزعم أنه لا يمكن أن تكون هناك فضيلة بدون جهد أو إنكار ذاتي(٥٥). حيث إن معظم الفلاسفة الأخلاقيين قد اتفقوا على أنه لا توجد أية ممارسة أو عمل أو قيمة جيدة مهما كانت فائدتها أو منفعتها يمكن أن تستحق اسم الفضيلة بالمعنى الدقيق للكلمة دون إنكار ملموس للذات(٥٦)؛ وهذا يمكن إعتباره إدعاءًا واقعيًا بأن الطبيعة البشرية، كما هي، لن تؤدي بشكل طبيعي إلى الأعمال الخيرة. وبذلك فهو يعتقد أن هذا بشكل عام هو الواقع فعلًا(٥٧).

والشيء بالشيء يذكر حيث نجد شافتسبري في كتابه الطبائع" له رأيٌ مضاد، إذ أنه يفترض أن البشر يمكنهم أن يكونوا أهل فضيلة بشكل طبيعي دون أي مشاكل، وأن الإنسان بما أنه مخلوق ليعيش في مجتمع، فلا بد أن يولد مزودًا بنوعٍ ما من الحب للكل –الذي هو جزء منه– وبنزوع إلى السعي نحو خيره وصالحه.

ومن ثم فإنه لا يمكن أن تكون هناك فضيلة دون إنكار الذات. وهذا يعد أكثر امتيازًا للمجتمع من العقيدة المعاكسة التي تعد مدخلًا كبيرًا للنفاق كما أراها بشكل عام(٥٨). كما أن التصورات الخيالية حول أن البشر يمكن أن يكونوا أهل فضيلة دون إنكار للذات هى مدخل واسع للرياء، الذى بمجرد أن يصبح معتادًا فإننا لن نخدع الآخرين فقط، بل سنصبح كذلك مجهولين لأنفسنا تمامًا(٥٩). ولذلك من الممكن أن تحول

(53) Mandeville, Bernard: An Enquiry into the Origin of Honour and the Usefulness of Christianity in War, p. 3.

(54) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, p. 382.

الترجمة العربية، ص ٣٦.

(55) Bredvold, Louis I.: The Fable of the Bees: Or Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville and F. B. Kaye, p. 588.

(56) Mandeville, Bernard: An Enquiry into the Origin of Honour and the Usefulness of Christianity in War, p. 3.

(57) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 132.

(58) Mandeville, Bernard: An Enquiry into the Origin of Honour and the Usefulness of Christianity in War, p. 4.

(59) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, p. 380.

الترجمة العربية، ص ٣٤.

الفضائل أمة صغيرة إلى أمة طيبة، لكنها لا يمكنها أبدًا أن تصنع أمة عظيمة[٦٠]. فالدولة الحديثة العظيمة والقوية تتطلب –على الأقل– تسامحًا مع الرذائل الشائعة والتي بدونها لا يمكنها أن تزدهر[٦١].

لذا فإن الفضيلة الأخلاقية كانت بمثابة "قاعدة أو قانون الكائنات العقلانية"، كما أن الطبيعة البشرية تعني ضمنًا فهم الإختلاف في الأفعال مثل الخير والشر[٦٢]. وبسبب العلاقة بين الخير والعقل، دعا العديد من الإنجليز في عهد ماندفيل إلى إنشاء مدارس خيرية لجعل المجتمع أكثر فضيلة. وكانت هذه المدارس جزءًا من حملة إعادة ترسيخ الأخلاق العامة، وهي ما تسمى بحركة إصلاح الأخلاق. ومن خلال التعمق في الإطار الأيديولوجي لهذه الحملة فقد نشأ الإعتقاد بأن نمو الرذيلة كان ناتجًا عن غياب ترسيخ العقل. وكما قال أحد المتحدثين بجمعيات إعادة تأهيل الأخلاق: "فبينما تعيش في الخطيئة فأنت لست بعقلك"[٦٣].

وقد أوضح ماندفيل في ملحق باسم "مجتمعات لتعزيز إعادة تشكيل الأخلاق" أن السعي لقمع اللطف يعمل فقط للترويج له، والسبب في ذلك هو أنهم يستخدمون العلاجات الخاطئة، فحتى الزواج فهو تقييد غير مناسب على الأقل للرجال... فالزواج في الواقع هو مجرد بذائة جميله وشراهة مقبوله، إلا إنه ينتج رجل يكره امرأة... ولهذا السبب نجد الكثير من الرجال المتزوجين لا يفعلون سوى المزيد من الأذى لكتاباته[٦٤]. وعلى الرغم من أن الزواج هو علاج مشكوك فيه من أجل حل مشكلة الخيانة والخداع، إلا أن الخيانة أو الخداع ليست أقل عداءً من الزواج[٦٥]. ومن المؤكد أنه لا يمكن محو الدعارة عن طريق السوط أو سجن الزناه[٦٦].

لذا فإنه إقترح بما يسمى بالدعارة العامة، وهذا ليس إقتراحًا غامضًا؛ فقد وضع ماندفيل جميع تفاصيل هذا الإقتراح؛ فذهب إلى أنه مع عدم وجود بيوت الدعارة العامة التي تنظمها الدولة[٦٧]؛ فإن الرجل ربما يوظف كلٍ من وقته وحديثه وماله في خداع بعض الفتيات. وهنا إلى جانب ضياع الوقت في تنفيذ مثل هذه الأمور

(60) Ibid., p. 425. الترجمة العربية، ص ٧٢.
(61) Mandeville, Bernard: Free Thoughts on Religion, The Church & National Happiness, p. ii.
(62) Cook, Harold J.: Bernard Mandeville and the Therapy of "The Clever Politician", p. 106.
(63) Ibid., p. 107.
(64) Monro, Hector: The Ambivalence of Bernard Mandeville, p. 75,76.
(65) Ibid., p. 77.
(66) Ibid., p. 76.
(67) Primer, Irwin: Bernard Mandeville's "A Modest Defence of Publick Stews", Prostitution and Its Discontents in Early Georgian England, p. 1.

الشهوانية، فهى غير متسقة تمامًا مع الأعمال التى يقوم بها، وربما تقود الرجل إلى زيادة المصاريف التي لم يتوقعها منذ البداية، بالإضافة إلى تقليل نسبة الإجهاض وقتل الأطفال...إلخ(٦٨).

وعلى الجانب الأخر لما كانت الصحة خيرًا لا جدال فيه في ذهن ماندفيل، فقد سمح لهوراثيو بالاحتجاج على أن بعض الرجال الذين يستمتعون بالدراسة يضعفون صحتهم ويقتلون أنفسهم بالفعل من كثرة التعب والإرهاق، ولكن كليومنز رد على الفور: "ليس هناك أكثر، كما هو معروف، مما يضر بصحتهم ويدمر أنفسهم من شرب الخمر. وقد عبرت أطروحته عن الرأي نفسه حين قال "أعتقد أن الكثير من الناس يدمرون أدمغتهم عن طريق الشرب أكثر من الدراسة"(*)... ومن ناحية أخر يرى أنه "يجب على الرجال أن يشربوا في بعض الأحيان لتجنب الوحدة أو الإنفراد(٦٩).

ومن أجل خلق منافسة بين البشر، فقد تم تقسيم الأنواع كلها، وفقًا لماندفيل، إلى طبقتين: طبقة منهما تكونت من البشر الحقراء ذوي العقول الوضيعة، هؤلاء الذين يطاردون دائمًا المتعة الآنية وغير القادرين كلية على إنكار الذات، وبلا إعتبار لخير الآخرين، وليس لديهم أي هدف أسمى من مصلحتهم الخاصة. هؤلاء المستعبدون بالشهوانية المستسلمون دون مقاومة لكل رغبة فظة، والذين لم يستفدوا من ملكاتهم العقلية إلا لزيادة متعتهم الحسية. هؤلاء التعساء المنحطون المنبطحون –على حد قولهم– هم نفايات جنسهم، وليس لهم إلا هيئة البشر ولا يختلفون فى شيء عن البهائم إلا فى شكلهم الخارجى. ولكن الطبقة الأخرى تألفت من مخلوقات شامخة ذات كبرياء متحررة من الأنانية الدنيئة، قدَّرت أن العقل هو خير متاع وهو ما يميزها عن غيرها، محتقرة كل ما تشترك فيه مع المخلوقات غير العاقلة، وقاومت بمساعدة العقل أكثر ميولها شدة، وبخوضها حربًا مستمرة مع أنفسها لتعزيز سلام الآخرين لم تستهدف شيئًا أقل من الصالح العام وقهر أهوائها الشخصية(٧٠).

وبذلك قدم ماندفيل للعالم نوعين متضادين من الأخلاق علينا أن نتبنى إحداهما... حيث إن البشرية قد تم تقسيمها إلى فئتين متميزتين؛ أولئك الذين يمثلون الصورة النبيلة عالية الروح والتي تخلو من الصفات الشريرة، وهم الممثلون الحقيقيون للبشرية، كما أنهم يقدرون العقل والرجل العقلاني ليكون أروع ممتلكاتهم، ويساعدهم في وضع قيمة حقيقية لأنفسهم، وهو يفعل ذلك دون أخذ أي مكسب لنفسه ويجد سعادته الحقيقية في فعله لذلك. فمثلًا تجده يعارض وبشدة الأفكار التى

(68) Monro, Hector: The Ambivalence of Bernard Mandeville, p. 78.

(*) "I believe more People break their Brains by Drinking than Study". A Dissertation Upon Drunkenness, (1708), p. 26.

(69) Anderson, Paul Bunyan: Bernard Mandeville on Gin, p. 779.

(70) Mandeville, Bernard: An Enquiry Into The Origin Of Moral Virtue, p. 30,31.

الترجمة العربية، ص ١٥، ١٦.

تدعو إلى العنف ويشن حربًا مستمرة مع هؤلاء لتعزيز السلام بين الأخرين بهدف تحقيق المصلحة العامة وإشاعة السلام بين البشر. وعلى الجانب الآخر أولئك الذين سقطوا أقل بكثير منه الفئة الأولى، وهم "أناس ضعفاء ذوي عقلية متدنية[٧١].

فهذا التقسيم الأسطوري للبشر إلى أولئك الذين أفادوا المجتمع عمومًا من خلال سلوكهم، وأولئك الذين لم يفدوا سوى أنفسهم، كان أول تمييز بين الفضيلة والرذيلة[٧٢].

ولكن لا تزال هناك مجموعة ثالثة لا تريد أكثر من إرضاء ذاتها وهؤلاء مثلهم مثل أي شخص آخر إستفادوا من إنكار الذات للآخرين، وبالتالي لا يسعهم إلا التفكير بإيجابية في الطبقة المتفوقة المحببة إليهم... لذا انضموا إلى مدح أولئك الذين يفعلوا الخير؛ وبهذه الطريقة حصل هؤلاء الأشخاص –من جراء العنف الذي قاموا به تجاه أنفسهم أثناء إنكار ذاتهم– على مكافأة الوصول إلى المجد بأبسط طريقة، وأكثر ما يمكن أن يقال عنه هو أنه أعظم هدف يمكن أن يتمناه الشخص، فضلًا عن التصفيق الذي يتوقعه من الأخرين[٧٣].

فمن الناحية العقلية لا يمكن العثور على الفضيلة إلا في أعمال أشخاص تجاوزوا وتغلبوا على طبيعتهم، ولكن طبقًا لجميع الإستدلالات المنطقية في موقف ماندفيل تتمركز حول الفضيلة المنبثقة من الأنانية[٧٤]. فالإنسان، وفقًا لماندفيل، مخلوق مدفوع فقط بعواطفه التى تعد جميعها مركزة في حب الذات. ومن الطبيعي أن يسعى الفرد فقط لإرضاء نفسه دون أي إعتبار للخير أو الأذى الذي يلحق بالآخرين[٧٥].

وهكذا هناك من سخر –ستيل مثلًا– من هذا الموقف قائلا أن "الحب هو شغف والشغف رغبة ويجب ألا تكون لدينا رغبات"[٧٦]. فمن خلال ملاحظاتنا عن خرافة النحل نجد أن المؤلف قد حدد الحب على أنه شغف مركب مصنوع من عواطف متناقضة ممزوجة في آن واحد[٧٧].

(71) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 126. And see, Bragues, George: Business Is One Thing, Ethics Is Another: Revisiting Bernard Mandeville's "The Fable of the Bees", p. 186.
(72) Primer, Irwin: Mandeville Studies, New Explorations in the Art and Thought of Dr. Bernard Mandeville (1670-1733), p. 37.
(73) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 126.
(74) Kaye, F. B.: The Influence of Bernard Mandeville, University of North Carolina Press, Studies in Philology, Vol. 19, No. 1, 1922, p. 91.
(75) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 125.
(76) Kaye, F. B.: The Influence of Bernard Mandeville, p. 91.
(77) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 33.

فلقد كان هناك ميل قوي للإدانة أو على الأقل رفض اسم الفضيلة على أي عمل يتضمن عنصر إحترام الذات، لأن حب الذات كان يُنظر إليه على أنه غير متوافق مع حب الإنسان وتمسكه بالله. فقد كان هناك زهد أخلاقي ولم يكن الإنسان الفاضل مهتماً بأمور هذا العالم، بل بالعيش قدر الإمكان فوق العالم(٧٨).

فوجهة نظره تؤكد على أن الأشخاص لا يحكم عليهم بأنهم يتمتعون بالفضيلة بناءًا على عواقب أفعالهم فقط ولكن وفقًا لدوافعهم. وبالمثل فيحكم عليهم بأنهم لا يتمتعون بالفضيلة بناءًا على دوافعهم فقط ولكن وفقًا لعواقب أفعالهم... فيجب على الأشخاص أن يعملوا عكس طبيعتهم وأن يسعوا لصالح الآخرين(٧٩). فقد استنتج ماندفيل أن الفضيلة يجب أن تكون قد نشأت من محاولة تضييق النطاق على العواطف، ومن ثم فتبدأ الأخلاق بالحرب على ميولنا الطبيعية(٨٠).

إن الفلسفة القائلة بأن الفضائل الموجودة في طبيعة الانسان مزيفة؛ لم تكن جديدة في القرن الثامن عشر ولها تاريخ طويل ومعقد يعود إلى القديس أوغسطين... ومن المسلم به أنها ذات فائدة اجتماعية كبيرة، ولكن ليس لها قيمة أخلاقية. فقد كان الدافع الأكثر شيوعًا وراء هذه الفضيلة المزيفة هو الكبرياء، حيث إن الفضيلة المزيفة تحقق نفس الغايات الاجتماعية التي يمكن تحقيقها بالفضيلة الحقيقية... ولأن هذة التصرفات النقية يختبأ خلفها الكبرياء؛ إذن هذه الفضيلة مزيفة في أحسن الأحوال، وفي أسوأها تكون مفرغة(٨١).

فقد صاغ ماندفيل واحدة من عباراته اللافتة: "الفضائل الأخلاقية هي النسل السياسي الذي ولده الإطراء بالفخر أو الكبرياء. وهذا يعني أنه على الرغم من تحفيز البشر في أفعالهم من خلال المصالح الأنانية وحدها، إلا أنهم يتحركون بفخر للظهور أمام العالم بشكل أفضل من السياسيين، أي أنه لإخراج الإنسان من حالة الطبيعة حيث كان سيئًا ووحشيًا وأنانيًا –كما أشار هوبز– إلى حالة الحضارة ؛ فإنه دائمًا ما يستخدم التملق لجعل البشر يذهبون مرة أخرى إلى نزعاتهم الطبيعية ويتصرفوا بشكل أفضل مما هم عليه في الحقيقة. وبالتالي فإن الفضائل لا تمتلك أصلًا إلهيًا ولكنها تنشأ من الطبيعة الأنانية(٨٢).

(78) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 127.
(79) Op.cit. Loc.cit.
(80) Bragues, George: Business Is One Thing, Ethics Is Another: Revisiting Bernard Mandeville's "The Fable of the Bees", Cambridge University Press, Business Ethics Quarterly, Vol. 15, No. 2, 2005, p. 185.
(81) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 127.
(82) Drennon, Herbert: Bernard Mandeville, High Priest of Paradox, p. 15.

فقد أظهر مفهوم الفضيلة الذي طرحه ماندفيل، أولاً: إنه لم يكن هناك فعلًا فاضلًا واضحًا إلا وكان مستوحى من جذور أنانية؛ فقد إعتبر كل شئ يحدث وكل تصرف يفعله أي شخص منبعه الأنانية. ثانيًا: إنه لا يوجد عمل شرير إلا وكان وراءه فكر عقلاني، فهو يرى أن الفضيلة نقيض للعواطف وحب الذات(٨٣).

ولكن لماذا يعتقد ماندفيل بشكل ما أنه لا توجد فضيلة حقيقية، على الرغم من كلماته التي تقول عكس ذلك؟ الجواب ليس ببعيد عنا؛ فيبدو تحليل ماندفيل للطبيعة البشرية جنبًا إلى جنب مع تعريفه للفضيلة وروايته لأصلها، ومن ثم يضع الفضيلة بعيدًا عن صفات الإنسان(٨٤). ولكن هذل لا يرقى إلى التأكيد على أن الفضيلة الحقيقية لا يمكن للمرء الوصول إليها... حيث إنه يعبر بروح الدعابة أنها أمرًا نادرًا في العالم(٨٥).

كان ماندفيل يجادل بأن الرذائل الخاصة هي منافع عامة، وأن الفضيلة ليست سوى نتاج خدعة سياسية –وذلك من وجهة نظر معاصريه في القرن الثامن عشر– فقد تم أخذ الفكرة الأولى لتاكيد الرذيلة، والثانية لإنكار حقيقة الفضيلة. وعلى الرغم من إختلاف النقاد المعاصرين إلا أنهم لم يعارضوا وجهة نظر ماندفيل الأصلية وتأكيده على أن الفضيلة التي يمكن العثور عليها في هذا العالم هي مجرد خدعة. وكان ماندفيل مدركًا أن حججه قد تم فهمها بهذه الطريقة، وهو يرفض هذا التفسير صراحة قائلا: "لم أكن أبدًا أقصد أنه ليس هناك أُناس فاضلون أو متدينون، وما أختلف فيه مع المعارضين هو حول العدد(٨٦).

إن الفضيلة الأخلاقية هي خدعة من المشرعين أو من الرجال الأذكياء في مجتمع يكرس الغباء؛ فقد كان على المشرعين وغيرهم من الحكماء إيجاد طريقة لجعل الأشخاص يعتقدون بأنه كان من الأفضل أن ينتصر الجسد على أن ينغمس في شهواته، بل ومن الأفضل بكثير أن ينهي المصلحة العامة عما قد يبدو أنه مصلحته الخاصة(٨٧).

إن إعجابنا أو عدم إعجابنا بالأشياء يعتمد بشكل أساسي على الموضات والعادات(٨٨)، أو على الوضع والعرف –اللذين نعتقد بطريقة أو بأخرى أنهما يتغلبان علينا– كأساس لتفضيلاتنا للأشياء(٨٩).

(83) Kaye, F. B.: The Influence of Bernard Mandeville, p. 90.
(84) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 125.
(85) Ibid., p. 137.
(86) Ibid., p. 125.
(87) Slack, Kevin Lee: Benjamin Franklin and The Science of Virtue, p. 56.
(88) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, pp. 378-379.
الترجمة العربية، ص ٣٣.
(89) Monro, Hector: The Ambivalence of Bernard Mandeville, p. 179.

ووفقًا للمعيار الذي يطرحه يكون الإجراء فاضلاً فقط: أ- إذا كان ينطوي على إنكار الذات (أي يتعارض مع دافع الطبيعة). ب- إذا تم إتخاذ "الدافع" بالمعنى الأوسع للقيام بالإجراء من حيث كون الأداء جيدًا (أنت طموح وعقلاني إذن أنت جيد). جـ- إذا كان من نوع الفعل الذي يميل إلى مصلحة الآخرين، أو غزو رغبة الشخص نفسه؛ فإذا تركت أيًا من هذه الشروط دون الوفاء بها، فإن الإجراء لا يكون فاضلاً بشكل صحيح... فالشرط الأول قد يؤخذ على أنه تأكيد على أنه لا توجد فضيلة في أي عمل يتضمن أي عنصر من عناصر الذات، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون أي عمل مدفوع من قِبل أيًا من عواطف الإنسان فاضلاً، وهكذا(٩٠).

إن الفضيلة بحكم التعريف تنطوي على إنكار الذات، وبالتالي عندما لا يكون هناك إنكارًا للذات، لا يمكن منطقياً أن يُطلق على الفعل بأنه فاضل مهما كانت عواقبه جيدة(٩١).

وقد بدأت النخب التي خلفت مؤسسي المجتمع السياسي تطلق على الأعمال التي تم تنفيذها من أجل إرضاء العواطف الفردية دون النظر إلى المصلحة المشتركة "الرذيلة"، ودعوة جميع الأفعال الأخرى "بالفضيلة" تلك التي غزى بها الفرد عواطفه بدافع الطموح العقلاني والعمل للصالح العام بغض النظر عن جميع دوافعه الطبيعية وعلى عكس دافع الطبيعة(٩٢).

وبإختصار يمكن أن يُسمَّى كل شيء يرتكبه الإنسان لإشباع شهواته دون مراعاة للجمهور العام "رذيلة"، وأن يمنح اسم "فضيلة" لكل أداء يسعى به الإنسان – بالمخالفة لبواعث الطبيعة – إلى فائدة الآخرين، أو إلى إخضاع عواطفه الشخصية من منطلق طموح عقلانى لأن يكون صالحًا(٩٣).

وقد أشار ماندفيل في كتابه "خرافة النحل: الرذائل الخاصة والمنافع العامة"، إلى أن ليس كل موقف شرير له جانب خيِّر يختبئ خلفه. وقد تبنى بعض المبادئ الأخلاقية فيما يتعلق بمتطلبات الأخلاق(٩٤). ففي الحياة الواقعية لا توجد عملة لها جانب واحد فقط. وعلى عكس ما قد يدعيه الحكام فإن الصفات هي مختلطة بعضها البعض وليس كل شيء يقابل نظيره، فالرذائل الكبيرة لا تنطوي بالضرورة على عواقب وخيمة. ومن ناحية أخرى يمكن للمؤلف بحس البصيرة أن يتوقع أن تجميع العناصر

(90) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 131.
(91) Ibid., p. 132.
(92) Hoss, Lewis: Reconciling Naturalism and Theology in the Political Thought of Bernard Mandeville, p. 8.
(93) Mandeville, Bernard: An Enquiry Into The Origin Of Moral Virtue, p. 34.
الترجمة العربية، ص ١٨، ١٩.
(94) Kaye, F. B.: The Influence of Bernard Mandeville, p. 90.

الفاضلة قد يؤدي إلى مجتمع راكد[٩٥]. لذا حاول أن يثبت أنه لم يتم العثور على الفضيلة عمليًا، وإذا تم العثور عليها بشكل عام فإن المجتمع سينتهي أو سيتوقف[٩٦].

أكد ماندفيل على أنه لا توجد فضيلة في أي عمل لا ينطوي على إنكار الذات، وقد ترك الأمر مفتوحًا لأن هذا الإنكار قد يكون تجاوزًا لرغبة آخرى، ويمكن أن يسمى هذا العمل بأنه "الإنكار الجزئي للذات". ومن المؤكد أنه يستبعد إمكانية إنكار الذات كليًا، ولكنه لا يستبعد إمكانية إنكار الذات جزئيًا[٩٧].

فعواطف الإنسان الطبيعية معادية بشكل عام لأداء الأعمال الجيدة، ولكنه يعمل هنا على التذكير بأن إنكار الذات متداخل منطقياً في مفهوم الفضيلة... ومع ذلك لا يتطلب أكثر من إنكار جزئي للذات، فهو لا يجعل من المستحيل على الإنسان أن يكون فاضلاً حقًا[٩٨].

يفسر ماندفيل ذلك بأن لا الممارسة ولا العمل أو الفعل الجيد –مهما كان مفيد أو فعال– يمكن أن يستحق اسم الفضيلة حيث لا يوجد إنكار ملموس للذات بشكل صريح[٩٩].

لذا فقد أصر على أن مفاهيم الصواب والخطأ تم اكتسابها، ولذلك أدرك أنه لا توجد حاجة إلى أي نظرية أخلاقية تتجاوز نفسية العواطف والإرادة[*][١٠٠].

الطبيعة البشرية وحياة الإنسان الاجتماعية:

إن جميع أشكال الحياة الاجتماعية، كما إدعى ماندفيل في مقدمة الخرافة، كانت في الواقع ليست أكثر من هياكل مختلفة تم فيها تنظيم "أعراض" و"رموز" الغريزة سياسيًا لصالح الأمن والسلام[١٠١]. وعلى الرغم من أن الرغبة في البقاء والشعور بالأمن تحث الأفراد على تحمل الكثير من المخاطر وبذل جهد أكبر، بل وإظهار قوة أكبر مما يمكن أن يتطلبه حب الذات؛ فإن حب

(95) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 111.
(96) Smith, G. C. Moore: The Fable of the Bees: Or, Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville, p. 475.
(97) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 131.
(98) Ibid., p. 132.
(99) Op.cit. Loc.cit.
(*) He insisted that the notions of right and wrong are acquired, and so he recognised no need for any ethical theory beyond a psychology of the passions and the will.
(100) Clark, George: Bernard Mandeville, M. D., And Eighteenth-Century Ethics, p. 443.
(101) Hundert, E. J.: The Enlightenment's Fable: Bernard Mandeville and the Discovery of Society, Cambridge: Cambridge University Press, First published, 1994, p. 62.

الذات، في الوقت نفسه، يتناسب مع الأفراد في المجتمع، فهو أكبر ضمان للأمن الشخصي والرفاهية؛ لأنه يدفعنا إلى السعي للحصول على قبول الآخرين لنا(١٠٢).

وقد ذهب ماندفيل قائلا: إن المجتمع المعاصر هو تجميع الأفراد المهتمين بالذات، والمرتبطون بالضرورة ببعضهم البعض لا من خلال إلتزاماتهم المدنية المشتركة ولا من خلال إستقامتهم الأخلاقية؛ ولكن من خلال الروابط الضعيفة التي تسود بينهم كالحسد والمنافسة والإستغلال(١٠٣). في حين أن حججه في خرافة النحل إعتمدت في الكثير من قوتها الإقناعية على إستراتيجية بلاغية مصممة بعناية... للدفاع عن نظرة قديمة تشير إلى المصادر الأنانية في السلوك الإنساني(١٠٤).

وعند تشريح سلوك الرجل المتوحش، إدعى ماندفيل أنه ذهب مباشرة "إلى رأس النافورة أو قمة التبة ألا وهي الطبيعة البشرية نفسها(١٠٥). إنه لا يقول أن هذا خير أو شر، فهو يوضح ببساطة أن الصفات الدنيوية التي ورثها، والفساد المتأصل في المجتمع يوفروا الوقود الذي يجعل المجتمع مزدهرًا وقويًا. وهو يرى أنك إذا أزلت الفساد فأنت بذلك تدمر القوة والازدهار(١٠٦). فمن المسلم به عمومًا أن الطمع والكبرياء هما المروجين الرئيسيين للتجارة والصناعة(١٠٧). فليس من السهل معرفة ما إذا كان يعتقد أنه يمكن تصحيح الأمور في الواقع، ولكن يمكن إستخلاص بعض الأشياء حول آرائه في الإصلاح بشكل عام(١٠٨).

إن ماندفيل لديه القدرة على تفسير كل مظاهر الغيرة بما يتناسب مع تناوله لأخلاقيات العمل وإثارة التهمة المألوفة ضد أنانية النفس... فضلًا عن أن المنظرين الأخلاقيين، مثلهم مثل الأشخاص الأخرين لديهم حوافز اجتماعية لتأكيد دوافع الغيرة(١٠٩).

وتجدر الإشارة إلى أنه من ضمن شروط تحليل ماندفيل للطبيعة البشرية، أن السبب الرئيس الذي يمكن من خلاله إقبال الفرد لعمل الخير هو أن الآداء له قيمة في حد ذاته، وبما أن البشر هم

(102) Bragues, George: Business Is One Thing, Ethics Is Another: Revisiting Bernard Mandeville's "The Fable of the Bees", p. 184.
(103) Mandeville, Bernard: A Treatise of the Hypochondriack and Hysterick Diseases (1730), p. 1.
(104) Hundert, E. J.: The Enlightenment's Fable: Bernard Mandeville and the Discovery of Society, p. 17.
(105) Ibid., p. 63.
(106) Primer, Irwin: Mandeville Studies, New Explorations in the Art and Thought of Dr. Bernard Mandeville (1670-1733), p. 193.
(107) Mandeville, Bernard: Free Thoughts on Religion, The Church & National Happiness, p. 20.
(108) Monro, Hector: The Ambivalence of Bernard Mandeville, p. 75.
(109) Bragues, George: Business Is One Thing, Ethics Is Another: Revisiting Bernard Mandeville's "The Fable of the Bees", p. 184.

مخلوقات أنانية في الأساس فلن يتأثروا بأي حجة مفادها أن آداء الأعمال الجيدة من جانبهم سوف يفيد من حولهم... وهنا فماندفيل، مثلًا، لا يتفق مع اللاهوتيين على أن الخير سيُكافئ أخيرًا في السماء، ولا يمكن إجبار الأشخاص على فعل الخير لأنهم سيجدون قريبًا طرقًا لتجنب العقاب... صحيح أن الفرد يكون لديه سبب لفعل الخير يتمثل في شكل مكافأة، فضلًا عن السعادة التي يتمتع بها في تلقية للثناء(١١٠).

لم يكن ماندفيل بالتأكيد واقعيًا أخلاقيًا، فبدلاً من الإعتقاد بأن الصواب والخطأ كانت مواقف واضحة يمكن تمييزها من خلال الإستخدام الملائم للعقل على أنه النعمة المميزة للبشرية؛ فقد رأى الحياة الاجتماعية على أنها عمل درامي يتشكل فيه السلوك من خلال إحتياجات العيش في الأماكن العامة وليس من أي إلتزام بفكرة مسبقة عن الأخلاق(١١١).

إن الإعتدال في الإعجاب بالذات ليس دائمًا سيئ، ومن نتائج الإفتقار إليه قد يؤدي إلى الإنتحار، والمبالغة فيه تسمى بالكبرياء المفرط. فالإعتدال في إستخدام الإعجاب بالذات هو فضيلة اجتماعية يطلق عليها هوراشيو "حب الثناء"... ولكن من الواضح أن تبرير "حب الثناء" أمر حيوي للتعريف بقيمة التصفيق الاجتماعي، بل وفرصة لتوليد إرضاء الذات(١١٢). وبما أن الثناء يلعب دورًا مهمًا في الأخلاق، فمن المحتمل جدًا أن يتصرف معظم الاشخاص دون إعتبار للعمل نفسه، ولكن ببساطة من أجل كسب مديح زملائهم(١١٣). وتركز مناقشات ماندفيل على أن الإنسان عندما يفعل أي شيء دائمًا ما تكون أفعالة نابعة ومرتكزة على مصلحته أولًا ثم مصلحة الأخرين بعد ذلك(١١٤).

فقد أوضح أن الإنسان إلى جانب أنه مكون من الجلد واللحم والعظام وما إلى ذلك مما هو واضح للعين، إلا أنه مُركب من مشاعر أو عواطف مختلفة. فقد يتعرض الإنسان إلى أن يكون مرؤسًا ويتعرض للسيطرة من جانب الآخرين، وسواء أراد ذلك أم لم يرِد يجب علينا أن نفهم أن جميع الدوافع الطبيعية شريرة وأنانية ولكنها أنانية فاضلة(١١٥). وهناك من قال في ذلك –فولتير مثلًا–

(110) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 133.
(111) Miller, Peter N.: Citizenship and Culture in Early Modern Europe, p. 739.
(112) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 32, 33.
(113) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 137.
(114) Perry, C. M.: Review: The Fable of the Bees by Bernard Mandeville and F. B. Kaye, p. 433.
(115) Reed, A. W.: Review: The Fable of the Bees: Or, Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville, p. 368.

"مثلما لا يكتب الرجال ليثبتوا أن الناس لهم وجهًا، فلا حاجة لأن يثبتوا أنهم أنانيون؛ فهذه الأنانية هي أداة الحفاظ على حياتنا[١١٦].

ومن خلال التعمق في طبيعة المجتمع والغوص في أسراره؛ نكتشف أنه ليس الخير والود بل الصفات السيئة والكراهية التي أظهرها الإنسان وعيوبه ورغبته في التباهي؛ هي الأسباب الأولى التي جعلت الإنسان اجتماعيًا[١١٧].

فقد يؤذينا التعرض للتقلبات الجوية والكوارث الطبيعية والأعاصير والزلازل أو التعرض للإلتهام من الأسود، فإذا إستطعنا حماية أنفسنا من كل هذا؛ فقد نتعرض إلى الإيذاء من بعض الحشرات. وهذا ما يحدث عندما نتعرض للإيذاء من نماذج تافهة، ومن خلال تفاهتها هذه تستطيع الإفلات من العقاب مثل إيذاء الحشرات. لذا كان لابد من تعامل أصحاب الثروات مع من هم بمثابة كيانات معدومة في المجتمع، ليس كما تفعل الحيوانات بالحشرات في الحقل، ولكن لابد من التعامل معهم بشكل معتدل به رافة ورحمة وعدم معاملتهم بالقسوة والإحتقار[١١٨]. فمثلًا إذا لم يكن شخصًا ما معتادًا على البحر دعه فقط يكون وسط عاصفة، أو إذا لم يمرض أبدًا من قبل فليُصَب فقط بإحتقان فى الحلق أو بحُمَّى خفيفة وسيُظهر جزعًا كبيرًا تتضح منه القيمة الثمينة التى يحملها للحياة[١١٩].

إن خصال الإنسان اللطيفة لا تسبب إثارة لأى فرد من نوعه... ولكن حاجات ورذائل ونواقص الإنسان سويًا مع المشاكل العديدة للهواء والعناصر الأخرى تحوى فى داخلها بذور جميع الفنون والصناعات والعمل... وهى ما تشد قدرتنا على الابتكار[١٢٠]. وهناك حجة أخرى لإثبات النزعة الطيبة والمودة الحقيقية اللتين نحملهما بشكل طبيعى لجنسنا البشرى: وهى حبنا للصبحة والنفور الذى يملكه البشر بشكل عام فى أحاسيسهم تجاه الوحدة أكثر من المخلوقات الأخرى[١٢١].

وهنا تاتي الخيرية وهي تلك الفضيلة التى من خلالها يتم تحويل جزء من ذلك الحب الصادق الذى نحمله لأنفسنا نقيًا وخالصًا إلى الآخرين، غير المرتبطين بنا عبر أواصر الصداقة أو القرابة، بل حتى الغرباء الخُلص الذين لا نحمل نحوهم أي التزام ولا نأمل أو نتوقع أي شيء منهم... ومن ثم تتصل

(116) Hundert, E. J.: The Enlightenment's Fable: Bernard Mandeville and the Discovery of Society, p. 17.
(117) Mandeville, Bernard: Mandeville on the Sources of Wealth, p. 327.
(118) Ibid., p. 328.
(119) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, p. 383.
الترجمة العربية، ص ٣٧.
(120) Ibid., p. 424. الترجمة العربية، ص ٧١.
(121) Ibid., p. 386. الترجمة العربية، ص ٤٠.

ممارسة هذه الفضيلة إما بالاعتقاد أو بالفعل، وتتجلى فيما نعتقده عن الآخرين أو فيما نفعله من أجلهم(١٢٢).

هذه الفضيلة كثيرًا ما تزيفها عاطفة لدينا تُسمى بالشفقة أو الرحمة، والتى تتبني على التعاطف مع الآخرين ومواساتهم فى مصائبهم وكوارثهم. ويتأثر بتلك العاطفة كل الجنس البشرى تقريبًا، ولكن بشكل عام فإن أكثر من يتأثرون بها هم أصحاب العقول الأضعف(١٢٣). وبشكل عام تملك أضعف العقول النصيب الأكبر منها؛ ولهذا السبب ليس هناك من هو أكثر رحمة وشفقة من النساء والأطفال(١٢٤). ولكن غالبًا ما تفعل الشفقة الكثير لتخفيف المعاناة أكثر من مراعاة قيمة الأعمال الخيرية. ولكن، وفقًا لماندفيل، عند التصرف بدافع الشفقة يعمل المرء فقط للتخفيف عن نفسه من المشاعر المؤلمة(١٢٥). وعندما سمع الفرد صرخات متضاربة مثل "أحب لجارك ما تحبه لنفسك" Love thy neighbour as thyself، و"أنقذ بلدك من خلال إنضمامك أو التجنيد في الجيش" Save your country by joining the army، و"المزاج أو الطبع، كما يقول ماندفيل، عوضًا عن العقل الخالص" Temperament, as Mandeville says, rather than pure reason(١٢٦). ولأننا كثيرًا ما نخطئ ونخلط بين الشفقة والخيرية، فإن الشفقة تتخذ شكل الخيرية وتستعير اسمها ذاته(١٢٧).

ويواصل القول بأن أصل الفضيلة الأخلاقية لا يمكن العثور عليها في الدين، ولكن بالأحرى في الإهتمامات الاجتماعية والسياسية للمشرعين وغيرهم من الحكماء المهرة؛ الذين يعملون من أجل إنشاء مجتمع(١٢٨).

إن دخول البشر في المجتمع –في المقام الأول– كان لتلبية احتياجات ذات صلة بالحفاظ على النفس وحب الذات... فقد أدرك ماندفيل أن الرغبة في الحفاظ على الذات لعبت دورًا حيويًا في حث البشر على دخول المجتمع... وأن أي مخلوق يميل بشكل مباشر أو غير مباشر إلى الحفاظ على نفسه أو على نوعه. ولذلك زعم

---

(122) Mandeville, Bernard: Essay On Charity And Charity-Schools, p.285, 286.
الترجمة العربية، ص ٧٧، ٧٨.

(123) Ibid., p. 287. الترجمة العربية، ص ٧٨.

(124) Mandeville, Bernard: An Enquiry Into The Origin Of Moral Virtue, p. 42.
الترجمة العربية، ص ٢٥.

(125) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 137.

(126) Smith, G. C. Moore: The Fable of the Bees: Or, Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville, p. 475.

(127) Mandeville, Bernard: Essay On Charity And Charity-Schools, p. 291.
الترجمة العربية، ص ٨٢.

(128) Ryerse, Barbara R.: Some Aspects of Browning's Satire: Browning, Donne, and Mandeville, Submitted in partial fulfilment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, Department of English, Faculty of Graduate Studies, The University of Western Ontario, London, Ontario, August, 1989, p. 220.

ماندفيل أن "عمل الحفاظ على الذات" كان في الواقع نوعًا مختلفًا من الحب الأعمق للذات. لذا فإنه سلط الضوء على "الحب الذي تحمله جميع المخلوقات القادرة على تحمل أي شيء في هذه الحياة[١٢٩].

وقد ذهب ماندفيل في ذلك "أنى أقصد بالمجتمع كيانًا سياسيًا يتم فيه إخضاع الإنسان إما عن طريق قوة أعلى أو عن طريق الإقناع، وتحويله من حالته المتوحشة كى يصبح كائنًا منضبطًا يمكنه أن يجد غاياته الشخصية فى العمل من أجل الآخرين[١٣٠]. فيدافع المجتمع السياسي عن نفسه من خلال تعليم مواطنيه لعقيدته، حيث إن وجود المجتمع أكثر أهمية من الحياة نفسها[١٣١].

فقد اقترح ماندفيل أن اجتماعيّة الإنسان تنشأ فقط من هذين الأمرين : تعدد رغباته، والمقاومة المستمرة التى يلاقيها فى سعيه لإشباعها[١٣٢]، أو التي يواجهها في مساعيه لإرضاء الأخرين. وقال إن المهمة الأولى للحكومات هي استخدام عقوبات غليظة لتثبيط السلوك المعادي للمجتمع، بالإضافة إلى ذلك زعم ماندفيل أنه كان من الضروري للذين عملوا من أجل تأسيس المجتمع، إقناع السكان أنه من المفيد لكل شخص أن يسمو عن شهواته على أن ينغمس فيها[١٣٣].

ووفقًا لماندفيل فإن الإنسان لديه القدرة الكامنة لأن يكون اجتماعي أكثر من أي حيوان أخر. ومع ذلك فإن الطبيعة الحيوانية للإنسان التي تدفع كل فرد إلى تحقيق ميوله الخاصة معادية لأي تفاعل اجتماعي طويل الأمد[١٣٤]. فكلما زاد فهم الإنسان وشهوته، أصبح أقل ملائمة للعيش بسلام بأعداد كبيرة... ومع ذلك لا يمكن لأي مخلوق غير الإنسان أن يكون "اجتماعيًا على الإطلاق[١٣٥]. وهذا هو السبب فى أنه فى حالة الطبيعة الوحشية تكون هذه المخلوقات أصلح للعيش معًا بسلام فى أعداد هائلة، حيث تكشف عن أقل ما يمكن من تفاهم، وتملك أقل ما يمكن إشباعه من شهوات[١٣٦].

---

(129) Breuninger, Scott Christopher: Morals, the Market, and History: George Berkeley and Social Virtue in Early Eighteenth-Century Thought, A Dissertation Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy (History), At The University of Wisconsin-Madison, 2002, p. 205.

(130) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, p. 399.

الترجمة العربية، ص ٥١.

(131) Slack, Kevin Lee: Benjamin Franklin and The Science of Virtue, p. 54.

(132) Mandeville, Bernard: Mandeville on the Sources of Wealth, p. 327.

(133) Breuninger, Scott Christopher: Morals, the Market, and History: George Berkeley and Social Virtue in Early Eighteenth-Century Thought, p. 206.

(134) Hoss, Lewis: Reconciling Naturalism and Theology in the Political Thought of Bernard Mandeville, p. 8.

(135) Slack, Kevin Lee: Benjamin Franklin and The Science of Virtue, p. 56.

(136) Mandeville, Bernard: An Enquiry Into The Origin Of Moral Virtue, p. 27.

الترجمة العربية، ص ١٣.

وفي الوقت نفسه نجد أن المجتمع الذي يجني فوائد نفعية من الفضائل الكاذبة، يتكيف مع متطلبات الشرف والأخلاق في الطبيعة البشرية. وبالتالي فالمجتمع يتطلب الإلتزام اللفظي –فقط– بالفضيلة الحقيقية ويساعد على توليد نفاق أخلاقي واسع الإنتشار، مما جعل ماندفيل يسعى إلى فضح هذا النفاق لإصلاح آثاره... فقد ذهب ماندفيل إلى أن الطبيب يمكنه أن يعالج المرضى بالسموم ويكون طبيبًا ممتازًا؛ وهو ذلك الذى فسره معاصروه على أنه سمم الأخلاق بهجاء الشرف والأخلاق والفضيلة المزعومة(١٣٧). فقد وصف ماندفيل في إحدى ملاحظاته أننا تعلمنا منذ مهدنا أن نخفي عادة النفاق عن أنفسنا حتى على المدى البعيد من باب حب الذات(١٣٨). ومن ثم من المستحيل أن نكون مخلوقات اجتماعية دون رياء(١٣٩).

وبذلك إستنتج ماندفيل أن كلمة الشرف تعني وسيلة إكتشفها الرجال من خلال التحدث معًا لإرضاء بعضهم البعض على حساب شغف واضح في طبيعتنا البشرية... حيث يمثل الشرف إطراء لشخص يستحقه وفقًا لآراء شخص آخر... ومن ثم يمثل الشرف هو أحد ركائز الروابط الاجتماعية، حتى لو ظهر الدين بأنه غير قادر على الحفاظ على العلاقات الطبيعية بين الرجال في المجتمع المدني... وبذلك فهناك علاقة بين إكتشاف الشرف وتوطيد المجتمع، فمن خلال توطيد الروابط الاجتماعية تكون مساهمة الشرف أكثر كفاءة من إكتشاف الفضيلة... ومن ثم فدور الفضائل في تأسيس الرابطة الاجتماعية وفقًا لهذا الهيكل هو دورًا ثانويًا(١٤٠).

وعلى الرغم من رغبته المتناقضة لإكتشاف روح الخير في الأشياء الشريرة وتتبعها بشكل ملحوظ كانت رؤيته للشر الاجتماعي في وقت مبكر من حياته(١٤١). وبعد ذلك فإنى أُثني على نفسى لكوني قد أثبتُّ أنه لا الخصال اللطيفة والعواطف الطيبة الطبيعية للإنسان، ولا الفضائل الحقيقية القادر على اكتسابها بالعقل وإنكار الذات هى أساس المجتمع؛ ولكن ما نسميه بالشر فى هذا العالم –سواء الطبيعي أو الأخلاقي– هو المبدأ الكبير الذى يجعلنا مخلوقات اجتماعية، وهو الأساس الصلب في الحياة والعون لكل المهن والأشغال

(137) Wood, Michael Boyd: "Whom Only Vanity Intices" Bernard Mandeville and British Philosophy in the Augustan Age, A Dissertation Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Doctor of Philosophy Degree, Department of Philosophy in the Graduate School, Southern Illinois University, May 1979, p. 152.

(138) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 110.

(139) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, p. 401.

الترجمة العربية، ص ٥٢.

(140) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 34, 35.

(141) Anderson, Paul Bunyan: Bernard Mandeville on Gin, p. 778.

دون استثناء؛ حتى أنه يتوجب علينا أن نبحث فيه عن الأصل الحقيقى لكل الفنون والعلوم، وأنه فى اللحظة التى يتوقف فيها الشر لابد أن يفسد المجتمع إن لم يتحلل كلية(١٤٢).

يجادل ماندفيل بأن القضاء على العواطف مثل التباهي والشرف والشجاعة سيكون سلبيًا للغاية بالنسبة للمجتمع، ويدعي أن العواطف من هذا النوع ضرورية لتكاثر المجتمع(١٤٣). إن هدف ماندفيل هو تقديم تحليل ودفاع عن المجتمع التجاري بعد الإصلاح في إنجلترا؛ وذلك لتوفير نظرية متماسكة حول تطور عمل المجتمع تستند كليًا على المصلحة الذاتية في أفعال الأفراد دون اللجوء إلى القوى الأخلاقية(١٤٤).

يؤكد كاي حقيقة أن ماندفيل يعتقد أن السلوك البشري مدفوع بشكل صارم بحب الذات وليس بالعاطفة الاجتماعية الطبيعية لحب المجتمع by self–love and not by a natural social passion of love of society. فقد استخدم السياسيون أو مؤسسو الحكومة والمجتمع المنظم والجهات الراعية نداءات الشرف والعار؛ وذلك لجعل الأشخاص يعيشون على عكس رغباتهم الطبيعية(١٤٥). يقول ماندفيل: كلما اقتربنا أكثر فى بحثنا داخل الطبيعة البشرية كلما زاد اقتناعنا بأن الفضائل الأخلاقية هى النتاج السياسى الذى ولَّده الإطراء فى زواجه من الكبرياء أو الفخر(*)(١٤٦).

ومن خلال الفحص الشامل لجميع نقاط القوة والضعف فى طبيعتنا، وبملاحظة أن أيًا منها لم يكن فظًا لدرجة ألا يفتته المديح أو حقير لدرجة أن يتحمل الاحتقار بصبر وأناة، فقد خلصوا عن حق إلى أن الإطراء لابد وأن يكون هو الحجة الأقوى التى يمكن استخدامها مع المخلوقات البشرية(١٤٧).

---

(142) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, pp. 427-428.
الترجمة العربية، ص ٧٤.

(143) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 35.

(144) Coats, A. W.: The Social Thought of Bernard Mandeville. Virtue and Commerce in Early Eighteenth-Century England. by Bernard Mandeville and Thomas A. Horne, p. 1012.

(145) Drennon, Herbert: Bernard Mandeville, High Priest of Paradox, Mississippi State University, The Mississippi Quarterly, Vol. 8, No. 4, 1955, p. 11.

(*) "Moral Virtues", says Mandeville, "are the Political Offspring which Flattery begot upon Pride".

(146) Mandeville, Bernard: An Enquiry Into The Origin Of Moral Virtue, p. 37.
الترجمة العربية، ص ٢٠.

(147) Ibid., p. 29. الترجمة العربية، ص ١٤.

وبهذه الطريقة البارعة من التملق تمكنوا من التسلل إلى قلوب البشر، وبدأوا فى إرشادهم حول مفهومى الشرف والعار؛ مقدمين أحدهما باعتباره الأسوأ من بين كل الشرور، والآخر باعتباره الخير الأسمى الذى يمكن أن يطمح إليه البشر الفانون(١٤٨).

والخلاصة عاش النحل مثل الإنسان وعمل الملايين منهم على شهوة وغرور بعضهم البعض. ومن ثم قام بوصف خصائص كل مجموعة من النحل الذين عاشوا في الخلية، وبيَّن كيف تتجلى تلك الصفات المميزة على الشخصيات في الأنواع التالية مثل: المحامون الذين قاموا بتقسيم الأجور أو الأتعاب وتأخير الجلسات والدفاع عن قضايا الأشرار، والأطباء الذين إكتسبوا الشهرة والثروة من خلال صحة مرضاهم... والجنود الذين كانوا جنرالات وحاربوا العدو، ولكن البعض الأخر أخذ رشاوى للسماح لهم بالرحيل، مثل وزراء الملك الذين سرقوا التاج نفسه الذي أنقذوه من الخلية، وهكذا(١٤٩).

الأمر فى الأخلاقيات هو نفسه فى الطبيعة؛ فلا يوجد شيء صالح تمامًا فى المخلوقات لدرجة أنه لا يمكن أن يكون مؤذيًا للأخرين فى المجتمع، ولا يوجد أي شيء شرير كليةً؛ بل لعله يكون مفيدًا لجانب أو آخر من العالم، إذن فالأشياء تكون طيبة أو شريرة فقط بالنسبة لشيء آخر... ووفقًا لهذه القاعدة يتمنى كل إنسان الخير لنفسه بأقصى ما يستطيع دون مراعاة كبيرة لجاره، فمثلًا الشخص المسافر للخارج يتمنى أن يكون الجو طيبًا في هذا اليوم، ويتمنى عدم نزول المطر وهذا عكس ما يتمناه الفلاح الذى يأسى لهذا المنظر ويأسف فى داخله(١٥٠).

الآثار المترتبة على زيادة معرفة الإنسان وخبرته في الحياة:

إن تأكيد ماندفيل على الحاجة المتزايدة كدافع للإبتكار يتسق مع موقفه الفلسفي الشامل الذي بموجبه لا يمكن علاج عادات الإنسان وميله، بما في ذلك حبه الطبيعي للسهولة والكسل، من خلال مبدأ الحاجة إلى عواطف أقوى لإخضاعها... حيث إن ميول الإنسان المضطربة لتحقيق رغباته ومساعيه المستمرة لإخفاء كوامنه على الأرض، قد أنتجت وأتت بالفنون والعلوم المفيدة التي لا يمكننا تحديد أسباب أخرى لها سوى الحصافة أو الرصانة البشرية والعمل المشترك لأجيال عديدة(١٥١).

---

(148) Ibid., pp. 29-30. الترجمة العربية، ص ص ١٤-١٥.

(149) Drennon, Herbert: Bernard Mandeville, High Priest of Paradox, p. 13,14.

(150) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, p. 426.

الترجمة العربية، ص ٧٢، ٧٣.

(151) Prendergast, Renee: Knowledge, innovation and emulation in the evolutionary thought of Bernard Mandeville, Oxford University Press, Cambridge Journal of Economics, Vol. 38, No. 1, 2014, p. 98.

وقد ذهب ماندفيل إلى القول أن تكون سعيدًا يعني أن تكون راضيًا، وكلما قل تصور الإنسان عن طرق أفضل للعيش؛ كلما زاد رضاه بحياته. وعلى الجانب الآخر كلما زادت معرفة الإنسان وخبرته فى الحياة، وكلما زادت رقة ذوقه روعًة، وكلما زادت مهارة حكمه على الأمور بشكل عام؛ كلما زادت بالتأكيد صعوبة إرضائه. وأنا هنا لا أُزكّي أي شيء بربرى أو لا إنساني(١٥٢).

وتُعني الحالة الطبيعية للإنسان في المجتمع إضطراره إلى إختراع بعض الأشياء مثل الملابس والمنازل. ومع ذلك فإن تلبية رغبات الإنسان الطبيعية لم تهدئ حالة الإحتياج المستمرة لديه؛ لأن رغباته وشهواته تتضاعف مع زيادة معرفته، وهذا بدوره جعل البشرية أكثر قدرة على النهوض بالمجتمعات الكبيرة والمتعددة(١٥٣).

يزعم ماندفيل أن الازدهار الإقتصادي مرتبط بشكل لا ينفصل بسعي الإنسان الطبيعي للمتعة، فيكون مدفوعًا بعواطفه ويسعى إلى مستويات متزايدة من الكماليات. والكماليات يعرّفها ماندفيل بأنها "أي شيء ليس ضروريًا لبقاء الإنسان من حيث كونه مخلوق حي"... وبما أن الكماليات ليست جزءًا من عمليات البقاء الطبيعية للإنسان، يؤكد ماندفيل أن رغباتنا مكتسبة. فالمعرفة توسع وتضاعف رغباتنا، وكلما قل عدد الأشياء التي يرغب فيها الإنسان كلما كانت إحتياجاته أكثر سهولة. فالعلاقة لا تقبل أية استثناءات، فكلما كانت المعرفة محدودة كلما تتضاءل الرغبة وينخفض الطلب على الكماليات(١٥٤).

فمن المؤكد أنه كلما كان لدى الإنسان رغبات أقل وكلما قل ما يشتهيه؛ كلما كان أسهل على نفسه بكثير، وكلما زاد نشاطه لتوفير احتياجاته وقل ما يتطلب منه أن يسهر عليه؛ كلما كان محبوبًا أكثر فى عائلته وأقل إثارة للمشاكل. وكلما زاد حبه للسلام والوئام وكلما زاد بّرهُ وإحسانه نحو جيرانه وكلما زاد تألقه بالفضيلة الحقيقية(١٥٥)، وكلما كان مقبول نسبيًا عند الله والإنسان(١٥٦).

(152) Mandeville, Bernard: Essay On Charity And Charity-Schools, p. 360.

الترجمة العربية، ص ١٤٢.

(153) Prendergast, Renee: Knowledge, innovation and emulation in the evolutionary thought of Bernard Mandeville, p. 98.

(154) Wood, Michael Boyd: "Whom Only Vanity Intices" Bernard Mandeville and British Philosophy in the Augustan Age, p. 153.

(155) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, p. 410.

الترجمة العربية، ص ٥٩.

(156) Wood, Michael Boyd: "Whom Only Vanity Intices" Bernard Mandeville and British Philosophy in the Augustan Age, p. 154.

إن أفضل سياسة، من وجهة نظر ماندفيل، هي الحفاظ على الأشخاص في بساطتهم الأصلية، والسعي لعدم زيادة أعدادهم، ويجب ألا تدعهم يتعرفون –أبدًا– على الغرباء أو النماذج الناجحة، ولكن إعزلهم عن كل شيء قد يثير رغباتهم أو يُحسِن فهمهم(١٥٧).

كان ماندفيل يرى أن المعرفة الحقيقية بالطبيعة كلها كانت نتيجة المراقبة والتجريب. وقد ميز هذه المعرفة الحقيقية بالطبيعة بما أسماه "شرح عملياتها" الذي إقترح أنه يخضع بطريقة ما للأزياء مثل إرتداء الملابس. وعلى الرغم من أنه يبدو أحيانًا أنه يشير إلى أن التفسيرات المقدمة هي مثل أمور الموضة تمامًا، فلم ينكر ماندفيل أنه يمكن أن يكون هناك تقدم حقيقي في فروع المعرفة العلمية(١٥٨). فالقراءة والكتابة تزيدان المعرفة، وكلما زادت معرفة البشر، كلما استطاعوا أن يحكموا على الأمور بأنفسهم بشكل أفضل(١٥٩).

يرى ماندفيل أن النظرية يجب أن تبنى على الملاحظة العملية، حيث إنه من الممكن أن تقف النظريات السائدة في طريق مزيد من التطور... ففي نظرية ماندفيل التطورية كان التطور على مستوى المجتمع، وكان يصر على أنه لم يكن هناك تغيير في قدرة الأفراد أنفسهم، وأن الإختلاف بين البشر كان نتاج التعلم والخبرة الحياتية(١٦٠).

وبذلك فإن ما تم نقله من قبل حواسنا الخاصة إلى مفاهيمنا يساعدنا على المعرفة، ومن ثم فإن الذي يتم بعد عملية الفحص الدقيقة يوضح أن أحكامنا صحيحة أم خطأ؛ لذا فعندما أسمع رجلاً يتكلم وآراه واقفاً أمامي أعلم أنه موجود(١٦١). فمن الواضح من أعماله أن المعرفة يجب أن تكون موجودة في الرأس كالقطن في الوسادة، ولكن كنز العقل كان عبئًا على الحمقى أصحاب العقول المفرغة الذين فضلوا التباهي!(١٦٢).

ففي إعتقاده كانت الحياة الواقعية والحياة الأخلاقية متطابقة في التحرك نحو فهم ترتيب الأشياء، فإن العقل الصحيح يميز بين الخير والشر وكذلك الصواب والخطأ. فالطريق إلى الحياة الصحيحة يكمن في تطوير عقل الفرد لمعرفة الشعارات. إن معرفة مصدر الخير والحق والتصرف

(157) Mandeville, Bernard: Mandeville on the Sources of Wealth, p. 327.
(158) Prendergast, Renee: Knowledge, innovation and emulation in the evolutionary thought of Bernard Mandeville, p. 98.
(159) Mandeville, Bernard: Essay On Charity And Charity-Schools, p. 355.
الترجمة العربية، ص ١٣٨.
(160) Prendergast, Renee: Knowledge, innovation and emulation in the evolutionary thought of Bernard Mandeville, p. 102.
(161) Mandeville, Bernard: Free Thoughts on Religion, The Church & National Happiness, p. 47.
(162) Prendergast, Renee: Knowledge, innovation and emulation in the evolutionary thought of Bernard Mandeville, p. 99.

بناءً عليه؛ هو السبيل الوحيد للفضيلة وهو المسار الوحيد الذي يمكن أن يحقق إمكاناتنا البشرية بالكامل(١٦٣).

فالأمل الوحيد في العيش حياة جيدة بين الجسد والعقل يكمن في التصرف وفقًا لإملاءات الطبيعة والعقل بشكل معتدل به توازن. ومن خلال ضبط العواطف يمكن للمرء أن يبقى بصحة جيدة أو يتعافى من إختلال التوازن(١٦٤). فلكي نجني الثروة العظيمة فلابد أن تكون بأيدي أُناس لا يستطيع شيء ما أن يفصلهم عن عملهم ويتمتعون بالرفاهية والذكاء(١٦٥).

وحينما يكون هناك إزدهار للمجتمعات، فلابد أن يكون هناك أيضًا قدرًا كبيرًا من العمل الشاق لفئة من العمال الفقراء. كما أن فقرهم هذا هو الحافز الوحيد للعمل. ومن ثم تتكون الثروة الوطنية في العديد من دول العالم من شقاء الفقراء. وهو يرى أيضًا أن تعليم هذه الفئة سوف يحفز فيهم الرغبة في تجنب الأعمال الشاقة، وعلاوة على ذلك فإن الجهود المبذولة بعد ذلك التعليم عن طريق وضع التلاميذ في وظائف سوف تتداخل مع المنحنى الطبيعي للتوظيف في هذه الدول(١٦٦). ومن ثم فعندما تشكو جميع المهن –وربما عن حق– من أنها متخمة بالعاملين؛ فإننا بذلك من وجهة نظره نؤذى هذه المهنة بوضوح عندما نضيف إليها عضوًا زائدًا أكثر مما يتطلب طبيعة العمل.

حياة الفقراء وقانون ماندفيل العجيب:

إن رفاهية وسعادة كل دولة ومملكة تتطلب أن تكون معارف الفقراء العاملين مقتصرة على حدود أشغالهم، وألا تمتد أبدًا (فيما يتعلق بالأشياء المادية) إلى ما وراء ما يتصل بمهنهم. فكلما زاد ما يعرفه راعي الغنم أو عامل الحرث أو أي فلاح آخر عن العالم وعن الأشياء الغريبة على عمله أو وظيفته؛ كلما قلت لياقته فى خوض متاعب العمل وصعابه بابتهاج ورضا... ولذلك فإن كل ساعة ينفقها هؤلاء الفقراء فى مطالعة كتبهم هى وقت ضائع بشكل كبير على المجتمع(١٦٧).

وكلما زادت معرفة الإنسان فى هذه الدولة كلما زاد تنوع العمل المطلوب لجعله مستريحًا. ومن المستحيل أن يتمكن مجتمع من البقاء طويلًا ويسمح لكثير من أفراده بالعيش فى كسل والاستمتاع بكل وسائل الراحة والمتع، دون أن يوجد فى الوقت نفسه جموع هائلة من الناس الذين سيذلون أنفسهم ليكونوا

(163) Cook, Harold J.: Bernard Mandeville and the Therapy of "The Clever Politician", p. 106.
(164) Ibid., p. 109.
(165) Mandeville, Bernard: Mandeville on the Sources of Wealth, p. 327.
(166) Reed, A. W.: Review: The Fable of the Bees: Or, Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville, p. 369.
(167) Mandeville, Bernard: Essay On Charity And Charity-Schools, p. 328, 329.
الترجمة العربية، ص ١١٥، ١١٦.

العكس تمامًا حتى يعوضوا هذا العيب، ويدربون أجسادهم بالتعود والصبر على العمل من أجل الآخرين ومن أجل أنفسهم كذلك[١٦٨].

فمن الطبيعي أنه لن يرضى إنسان بأن يكون فقيرًا وأن يرهق نفسه من أجل الرزق إذا كان يمكنه تجنب ذلك. إن الحاجات الأساسية المتمثلة جميعها فى الطعام والشراب والملبس والمأوى فى المناخات الباردة، تجعلهم يخضعون لأى شيء يمكن تحمله بها. فإذا لم يكن هناك شخص يريد فلن يكون هناك شخص يعمل؛ ولكن أكبر الصعاب تبدو مُتعًا رائعة عندما تقي الإنسان من الموت جوعًا[١٦٩]. فلا يوجد إمرء سيؤدي عملًا عبوديًا قذرًا يمكنه تجنبه. أنا لا أرفضهم ولكن كل هذه الأشياء توضح أن الذين يعانون أشد المعاناة يعرفون أكثر مما يلزم ليكونوا فى خدمتنا[١٧٠].

مما قيل يتضح أنه فى أي بلد حر لا يُسمح فيه بوجود العبيد فإن أضمن ثروة تتمثل فى حشد من الفقراء الكادحين؛ لأنهم بالإضافة إلى ذلك يُعدَّون مشتلًا لا يخيب أبدًا للأساطيل والجيوش، وبدونهم لا يمكن أن تكون هناك ثمة متعة. فلكي تجعل المجتمع سعيدًا والناس مرتاحين في أسوء الظروف، فمن الضرورى أن تكون أعداد كبيرة منهم جاهلة وفقيرة كذلك؛ فالمعرفة توسع وتضاعف رغباتنا، وكلما قلت الأشياء التى يتمناها الإنسان كلما أمكن توفير احتياجاته الضرورية بسهولة أكبر[١٧١].

ولكن هناك على الجانب الأخر من يرى عكس ذلك ويعتقد أن ماندفيل خصم مدمر لكل الآداب والمعارف النافعة، وأنه مدافع شرير عن الجهل والغباء فى العالم، وحتى هو نفسه ذهب إلى القول: من المؤكد بنسبة تسعين فى المائة أنهم سيتهمونني بأننى أسعى بتحريض من إبليس أمير الظلام لإدخال المزيد من الجهل والبربرية إلى هذه المملكة أكثر مما سقطت فيه أية أمة أخرى منذ أن بدأ نور الإنجيل فى العالم[١٧٢].

لقد أوضحت فعلًا بما يكفي السبب فى أن الذهاب إلى المدرسة بطالة وكسل إذا قورن بالعمل، وفنَّدت هذا النوع من التعليم لأطفال الفقراء؛ لأنه يُضعف قدراتهم فيما بعد على العمل المباشر، الذى هو مجالهم الصحيح، وفى كل مجتمع متحضر هناك جزء لا يجب أن يشكو أو يتذمر منه إذا تم ضبطه بتعقل وإنسانية[١٧٣].

أعرف أن ثمة من سيجادل دائمًا ضدى بأنه من الوحشية ألا يكون لدى أطفال الفقراء فرصة الاجتهاد بأنفسهم طالما أن الله لم يحرمهم من المواهب العاطفية والعبقرية أكثر مما فعل مع الأغنياء.

---

(168) Ibid., pp. 325-326. الترجمة العربية، ص ١١٣.
(169) Ibid., p. 327. الترجمة العربية، ص ١١٥.
(170) Ibid., p. 345. الترجمة العربية، ص ١٣٠.
(171) Ibid., p. 328. الترجمة العربية، ص ١١٥.
(172) Ibid., pp. 331. الترجمة العربية، ص ١١٨.
(173) Ibid., p. 341-342. الترجمة العربية، ص ص ١٢٦-١٢٧.

ولكني لا يمكننى الاعتقاد بأن هذا أقسى من أنهم لا ينبغي أن يحصلوا على نقود طالما أن لديهم نفس الميول للإنفاق كالآخرين، وأنا لا أنكر أن رجالًا عظامًا وصالحين قد نشأوا فى ملاجئ خيرية[١٧٤].

فهناك الكثير من العمل الشاق والقذر الذى يجب أن يتم، والحياة الخشنة التى يجب الإذعان لها. أين سنجد مشتلًا أفضل لهذه الضرورات من أطفال الفقراء؟ ليس هناك بالتأكيد من هو أقرب لها أو أكثر مناسبة، بالإضافة إلى ذلك فإن الأشياء التى أسميتها بـ الصعوبات لا تبدو ولا تكون هكذا بالنسبة لهؤلاء الذين تربوا عليها، ولا يعرفون شيئًا أفضل منها[١٧٥]. ومن ثم فإن ما يدعوا إليه من وجهة نظره يمكن ألا يشكل ضررًا أو أقل نقص فى سعادة الفقراء[١٧٦].

ومن ثم يقول ماندفيل أننا لو تأملنا ونظرنا فى هذه الأمور بمنظور آخر فسنجد أن عمل الفقراء بعيد للغاية عن أن يكون حِملًا أو فرضًا عليهم. إن الحصول على عمل هو نعمة يُصلُّون من أجلها فى مناجاتهم للسماء، وأن نواله بالنسبة لأغلبيتهم هو دليل الإهتمام الأكبر من كل هيئة تشريعية[١٧٧].

وعلى الجانب الأخر يعتبر ماندفيل أن وجود ملاجئ كافية للمرضى والجرحى واجب لا غنى عنه فى كلٍ من السلم والحرب: الأطفال الصغار الأيتام، والعجائز الذين ليس لهم من مُعين، وكل هؤلاء العاجزين عن العمل يجب أن يتم العناية بهم بسرعة وعطف... ورغم ذلك فإنه لن يشجع التسول والكسل فى الفقراء؛ إذ ينبغي على الجميع أن يبدأوا في العمل الذي يستطيعونه بأي شكل من الأشكال... فضلًا عن أنه عندما يتلقى أطفال الفقراء تعليمًا أفضل سيجنى المجتمع فائدة ذلك فى غضون سنوات قليلة، وستتطهر الأمة من كل هؤلاء الأوغاد الكثيرين الذين يملأون هذه المدينة العظيمة والبلد بأكملها[١٧٨].

حيث إن المدارس الخيرية –وكل شيء آخر من شأنه أن يشجع على الكسل ويمنع الفقراء من العمل– هى مدخل أكبر لنمو الإجرام من نقص القدرة على القراءة والكتابة أو حتى أفدح حالات الجهل والغباء[١٧٩].

إذن فالشرور التى نشكو منها هى نتيجة لأسباب مختلفة تمامًا عما ننسبها لها. ولابد وأن البشر متقلبون بشدة فى عواطفهم، حتى أنهم فى مرَّة يرفعون المعرفة والتعلم باعتبارهما أفضل الوسائل لدعم الدين، وفي مرَّة أخرى يدافعون عن الجهل باعتباره أم الإخلاص والتفاني[١٨٠].

---

(174) Ibid., p. 356. الترجمة العربية، ص ١٣٩.

(175) Ibid., p. 357. الترجمة العربية، ص ١٣٩.

(176) Ibid., p. 362. الترجمة العربية، ص ١٤٤.

(177) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, p. 413.
الترجمة العربية، ص ٦٣.

(178) Mandeville, Bernard: Essay On Charity And Charity-Schools, pp. 303-304.
الترجمة العربية، ص ٩٢، ٩٣.

(179) Ibid., p. 306. الترجمة العربية، ص ٩٦.

(180) Ibid., p. 312. الترجمة العربية، ص ١٠١.

مدى تأثير الدين في الحياة عند ماندفيل:

يتألف الدين بشكل عام من الإعتراف بسلطة لا نهائية تفوق جميع السلطات الأرضية؛ فهو كيان غير مرئي يحكم العالم، وسعيًا محترمًا من جانبنا لأداء مثل هذه الواجبات(١٨١). ويُعرّف ماندفيل الدين بأنه "الإعتراف بسلطة خالدة". ويقول بعد ذلك إن "الرجال العقلاء قد أضاعوا وقتهم دون جدوى في مناقشة الموضوع وبحثه منذ زمن سحيق؛ لأن معرفة الله شيء لا يمكن لأي لغة أن تعطيهم أدنى فكرة عنه. كما أن الله غير مُدرك والدين غامض؛ لذا لا يمكن لأى إنسان أن يكون ملمًا بالعقيدة والإيمان بالله. وهكذا إستبعد ماندفيل إمكانية دراسة الدين على أسس معرفية؛ وذلك لكونه مسألة خارجة عن الفهم البشري، وأنه لا يمكن معرفة أي شيء عن الله، ولا يمكن قول شيء ذي قيمة حول هذا الموضوع. وهكذا تحرر من دراسة كل ما يتعلق بالله في بقية كتابه "أفكار حرة حول الدين والكنيسة والسعادة الوطنية"، ولكنه قام بمراجعة عامة للظواهر الدينية كجانب من جوانب السلوك البشري، وفضح الممارسات الفاسدة لرجال الدين عبر العصور المختلفة ودعوات التسامح التى كانت سائدة آنذاك(١٨٢).

إن ديننا يتطلب منا الإيمان والأعمال الصالحة؛ أي أن من واجبات المسيحي هو أن يصدق حقائق الإنجيل الغامضة والتاريخية... فهناك من ينظُر إلى كلمة إيمان أو عقيدة على أن بها شيء من الإختيار، كما لو أن الناس يمكن أن يعتنقوا ما يرغبون، ويتم إقناع العديد منهم بأنهم يعتنقون الأفضل؛ لذلك فلهم حرية الفحص أو التقصي والتساؤل وعدم اعتناق الدين إذا رغبوا في ذلك. وهذا فقط من أجل معرفة ما هو الإيمان الحقيقي(١٨٣). وكلما تعرف الإنسان على العالم إما بالقراءة أو الخبرة كلما كان مقتنعًا أكثر، ليس فقط بالكشف عن الدين الحقيقي ولكن أيضًا بالمثل الإنسانية والعقلانية والمصلحة البشرية وسلامتهم ورفاهيتهم. فكل شيء تقريبًا في الطبيعة يطالب بالتسامح(١٨٤).

ونتيجة لتحقيقاته أدرك الحاجة إلى إصلاح المؤسسات الخيرية والدعارة والإعدامات العامة والتعليم الطبي؛ فهو في كل هذه المجالات يوصي ببرامج محددة تهدف إلى تخفيف المعاناة الإنسانية وتعزيز التسامح الجنسي والسياسي والديني(١٨٥).

(181) Mandeville, Bernard: Free Thoughts on Religion, The Church & National Happiness, p. 15.
(182) Primer, Irwin: Mandeville Studies, New Explorations in the Art and Thought of Dr. Bernard Mandeville (1670-1733), p. 34.
(183) Mandeville, Bernard: Free Thoughts on Religion, The Church & National Happiness, p. 15.
(184) Ibid., p. 127.
(185) Wood, Michael Boyd: "Whom Only Vanity Intices" Bernard Mandeville and British Philosophy in the Augustan Age, p. 152.

وبذلك أعلن ماندفيل عدم إهتمامه بالدين لمصلحته الخاصة[١٨٦]. ففى إعتقادي أنه يجب قراءة ماندفيل على أنه شخص غير مهتم بالدين لمصلحته الخاصة، بل مهتم بإعطاء سرد طبيعي للسلوك الأخلاقي، وأن هذه القراءة أمر طبيعي من حيث كونه غير مرتبط بأي موقف لاهوتي، ولكنه يسعى لتفسير الأخلاق وعلاقتها بالطبيعة البشرية.

وفي الوقت نفسه لا يمكن أن نشكك في إهتمامه بظاهرة السلوك الأخلاقي، ولكنه يهتم به كموضوع منفصل تمامًا عن المشاعر الدينية[١٨٧]. فالدين يولد من الخوف، وبالتالي فهو مكون غير قابل للإزالة من الطبيعة البشرية[١٨٨]. لذا فإننا نعتقد أن هذا الانفصال يمكن تفسيره في ضوء خلفيته الكالفينية، ولكن يجب التأكيد على أن ماندفيل أخذ فكر بايل في تفسيره للدين والأخلاق. فهو يرى أن أي تفسير يعتمد على إفتراض أساس لاهوتي في التفكير في المسائل الأخلاقية لابد أن يكون مضللاً، وهذا قد يساعد في فهم أصل نوع التمييز الذي يحدثه ماندفيل بين الدين والأخلاق[١٨٩].

فإذا كانت الفضيلة مجرد قناع مناسب؛ فعندئذ لا يمكن تمييز الفرق بين الفضيلة والرذيلة أو أن الخير والشر يظهر من الخارج فقط؛ وإذا كان من الخارج فالله وحده هو الذي يمكنه أن يميز هذا[١٩٠]. وثمة اعتراض سيثور بأنه لا يوجد أبدًا مجتمع أصاب أي جانب من التحضر قبل أن تتفق الغالبية العظمى منه على شكل أو آخر من العبادة لقوة ذات حكم مطلق، وبالتالى فإن مفهومى الخير والشر، والتمييز بين الفضيلة والرذيلة لم يكونوا أبدًا إختراعًا من السياسيين، بل نتاج خالص للدين[١٩١].

حيث إنه ليس هناك فضيلة لها اسم، ولكنها إنبثقت من العاطفة الخاصة بالطبيعة الإنسانية. وبالتالي نقول إن الله يمتلك كل الفضائل ولكن في أعلى درجات الكمال... كما أنه خالٍ تمامًا من العواطف والضعف. إن قداسة الله وكماله الكلي وكذلك الغبطة الموجودة فيه ترجع إلى طبيعته... وبالتالي يجب أن تكون أفكارنا عن الذات الإلهية جديرة به كلما كنا قادرون على تصورها؛ لأننا لا نستطيع أن نكون ملائمين لعظمته... ويكفي أننا

(186) Primer, Irwin: Mandeville Studies, New Explorations in the Art and Thought of Dr. Bernard Mandeville (1670-1733), p. 34.
(187) Ibid., p. 34, 35.
(188) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 233.
(189) Primer, Irwin: Mandeville Studies, New Explorations in the Art and Thought of Dr. Bernard Mandeville (1670-1733), p. 35.
(190) Miller, Peter N.: Citizenship and Culture in Early Modern Europe, p. 738.
(191) Mandeville, Bernard: An Enquiry Into The Origin Of Moral Virtue, pp. 34-35.
الترجمة العربية، ص ١٩.

غامرنا بالحديث عن موضوع بعيد جدًا عن مداركنا ولكن بما منحنا به فإن كل شيء يمكن للإنسان أن يتصوره ويحلله(١٩٢).

وبذلك يسمح هذا الفكر حول أصل الدين لماندفيل بإستنتاج أن الدين ليس عاملاً حاسمًا في ولادة المجتمع (لأنه بوجود أخلاق منفصلة عن الدين؛ فيمكننا التصرف أخلاقياً بشكل مستقل عن معتقداتنا الدينية). وعلى الرغم من ذلك فهو عنصر ضروري وغير قابل للإزالة من الطبيعة البشرية. ولذلك لا يحتاج المجتمع إلى الدين فهو يرى أن الفضيلة كافية، ومع ذلك من المستحيل التفكير في مجتمع بدون دين(١٩٣).

يميز ماندفيل بين أصل الدين ووظيفته الاجتماعية، ففيما يتعلق بوظيفته الاجتماعية رآى أن الدين ليس ضروريًا للحياة في المجتمع... وهذا يعني أن الدين ليس له وظيفة حاسمة في المجتمع، ولكنه مفيد لتعزيز الروابط الاجتماعية من خلال شبكة القيم المشتركة وتعزيز الإلتزام السياسي عندما تأتي الكنيسة والدولة بشكل متزامن(١٩٤).

وقد ميز ماندفيل بين دين الأناجيل ودين الكهنة؛ دين الأناجيل هو المسيحية كما تم تشكيلها في القرون الأولى، في حين أن دين الكهنة هو نتيجة التحول الذي خضع له كدين رسمي للدولة. دين الأناجيل هو مجموعة القيم الأولى الأصلية للمسيحيين، والقيم التي لا تتوافق مع إمكانية تأسيس مجتمع، في حين أن دين الكهنة هو التكيف الذي مرت به هذه القيم في الوقت المناسب حتى تتمكن المسيحية من البقاء والإستمرار على قيد الحياة(١٩٥).

لذلك فإن التمييز بين دين الأناجيل ودين الكهنة له وظيفة محددة وهي تسليط الضوء على التباين بين القيم المسيحية في حد ذاتها وإستغلالها السياسي(١٩٦). فقد تلاعب بالمعاني الدينية النقدية والأخلاقية؛ وذلك لرفض القضية التي تم الجدال فيها بأنه ليس من الصحيح أخلاقيًا ولا من مصلحة المرء أن يكون متدينًا(١٩٧).

(192) Mandeville, Bernard: An Enquiry into the Origin of Honour and the Usefulness of Christianity in War, p. 3, 4.
(193) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 233.
(194) Op.cit. Loc.cit.
(195) Ibid., p. 234.
(196) Op.cit. Loc.cit.
(197) Ryerse, Barbara R.: Some Aspects of Browning's Satire: Browning, Donne, and Mandeville, p. 219.

فالدين بالنسبة لماندفيل يطرح مشاكل اجتماعية وسياسية، فهو لا يهتم بالعبادة والفداء وما إلى ذلك؛ ولكنه معني بالحفاظ على الطوائف المختلفة القابلة للتغيير أو التى يمكن إدارتها من وجهة نظر سياسية. أما بالنسبة للأخلاق فهو مهتم بتحليل البواطن الخفية للسلوك البشري أكثر من وصف العلاج للمشاكل السلوكية في المجتمع(١٩٨).

يشير ماندفيل إلى أنه يتفق تمامًا مع الفكر الذي ينسب المخطط الكونى كله إلى الله، وأن العناية الإلهية قد جاءت من أجل التصرف في الأشياء التى الموجودة الكون والتخلص منها(١٩٩).

فالسعادة في إيماننا وقبولنا المشترك بأن هناك إلهًا وأن العالم تحكمه العناية الإلهية. أما الذي لا يؤمن بالله أو غيره فهو ملحد، ولا أعتقد أن هناك الكثير من الملحدين... لأن الذي لا يعترف علنًا بإيمانه يجب علينا أن نحكم على معتقده من خلال فحص أفعاله بدقة... وقد ذهب ماندفيل إلى أننا لدينا العديد من الأشخاص الذين تم إعدامهم في عام واحد بسبب الجرائم الهائلة وجميعهم مسيحيين ولكنهم سيئون... وبالتالي لا ينبغي أن يبدو لنا ذلك غريبًا فى أن الملحد قد يكون رجلًا هادئًا أخلاقيًا في حين يعيش المسيحي حياة شريرة للغاية(٢٠٠).

وبالتالي فلا شيء أسهل من الإيمان؛ فقد يكون الناس مخلصين في إيمانهم، وقد يكون الغيورين على الدين الذي يعترفون به هم في الوقت نفسه يعيشون حياة شريرة ويتصرفون بشكل مخالف تمامًا لمعتقداتهم... لذلك فهناك العديد من الناس، في جميع العصور، الذين غادروا بلادهم وعقاراتهم ووظائفهم وأصدقائهم وأسرهم من أجل دينهم... فقد أظهر الإمبراطور المسيحي جوفيان الذي خلف جوليان أنه على إستعداد للتخلي تمامًا عن منصبه للحفاظ على دينه؛ وذلك عندما أمر جوليان ضباط قواته بإعتناق الوثنية أو الإستقالة من عملهم؛ فلم يقبل هو الإمبراطورية وأعلن أنه مسيحيًا وأنه لن يعبد الأوثان، فأعلن الجنود مثله أنهم مسيحيون. مع العلم بأن جوفيان كان عابثًا ومدمنًا للنبيذ والنساء بشكل مخزي، ولكنه مسيحيًا أمينًا، وكان قادرًا على تفضيل دينه على الإمبراطورية الرومانية وعلى الإنغماس في الخطيئة واللذات(٢٠١).

إن أكبر صعوبة في ديننا هي أن نلتزم بقواعد المسيحية، وأن نتغلب على عواطفنا وعلى إرضاء شهواتنا المحببة إلينا وهذا ما بدأوه قلة قليلة منا بجدية. أما الفضائل الفائقة والبطولية فمن النادر جدًا تحقيقها مثل: أن نحب أعداءنا أو نفعل الخير لمن يكرهوننا... ومن ثم فإن الهدف من هذا كله معناه أن جميع قواعد

(198) Primer, Irwin: Mandeville Studies, New Explorations in the Art and Thought of Dr. Bernard Mandeville (1670-1733), p. 42.
(199) Hoss, Lewis: Reconciling Naturalism and Theology in the Political Thought of Bernard Mandeville, p. 22.
(200) Mandeville, Bernard: Free Thoughts on Religion, The Church & National Happiness, p. 15,16.
(201) Ibid., p. 17, 18.

الأخلاق والواجبات الأخرى التي تقع على عاتق المسيحي لا يجب أن يتم إجراؤها لأي اعتبار أو أي سبب آخر غير محبة الله وقدسيته(٢٠٢).

وبالتالي فلكي نحكم على أفعالنا يجب أن نستفسر عن الدوافع التي دفعتنا إلى تنفيذ الفعل، حيث إن الإغراءات التي تغري الفرد بل وأقوى الميول النابعة من الداخل تبقي غير مكتشفة... فإذا نظرنا مثلًا إلى روما الوثنية قديمًا نجد أنها كانت لديها أكبر عدد من النساء اللاتي جربن الشرف والفضيلة السامية التي تتباهى بها أكثر من أي بلد منذ مجيء المسيح، وغالبًا ما يكون الخوف من قضية إثبات نسب الأطفال والفضيحة التي تترتب على كونهن عاهرات؛ دوافع كافية للنساء الأكثر شرًا وإنحرافًا... كما أن النساء المتعلمين وذوي المناصب والمشاعر الطيبة، حتى عندما يتم حمايتهن من المخاوف التي ذكرتها، غالبًا ما يدافعن عن شرفهن بإعتباره أقيم جوهرة يمتلكونها دون أن يتدينَّ بدين ما، بل إنها كنزًا في رأي جميع الرجال الذين يقدرون قيمتهم. حيث إنه لا يمكن أن يتنافس أي جمال أو ذكاء أو ثروة مع الشرف، وأن اللاتي عرفن أنهم فقدوه منبذون من جميع البشر، ونادرًا ما ينظر إليهم أحدًا حتى من بين الذين سرقوا منهم شرفهم(٢٠٣).

ولكن هناك فرق شاسع بين عدم إرتكاب الأخطاء من ناحية مبدأ الكبرياء والحكمة، وتجنب الخطيئة من أجل محبة الله... فعندما تضع المرأة السم لزوجها وفي الوقت نفسه ترفض أن تكون عاهرة، سيكون من الصعب الغوص في المبدأ الذي تقتدي به؛ ولكن من المؤكد أن محبة الله ليست دافع استمراريتها، لأنه إذا كان له أية سلطة عليها، فإنها لا يمكن أن تكون مذنبة بأي حال من الأحوال... وكذلك أيضًا إذا تجنب شخص ما النساء العاهرات لأنهن باهظات الثمن أو إذا منعه الخوف من الإصابة ببعض الأمراض أو فقدان سمعته؛ فليس لديه مبرر لخداع نفسه، لأن إستمراريته لا تتبع من أية مخاوف دينية، كما أن هذا لا يعد غزوٌ العواطف بل مقايضة أحدهما بالآخرى(٢٠٤).

إن هدفي هو جعل الرجال يتغلغلون في ضمائرهم الخاصة من خلال البحث عن الدوافع الحقيقية لأفعالهم، بل وأن يعرفوا أنفسهم ويعرفوا الدافع وراء أفعالهم في هذه الحياة(٢٠٥).

ولكن من ناحية أخرى يمكن أن ننكر أن هذه الرذائل –التي يحذرنا منها الإنجيل كثيرًا– تحتوي على بذور جميع الآثام والاضطرابات التي تُرتكب من كذب وإفتراء وإنتقام طالما أنهم لا ينتجون الأذى الظاهر للآخرين، حيث يُنظر إليهم بشكل عام على أنهم هفوات وذلات مؤقتة، ومع ذلك فمن المؤكد أنه لا يوجد وحي ولا عقل راسخ يمكن أن يخبرنا بأنهم أقل شناعة في نظر الله من القتل أو الزنا... فمثلًا كثيرًا ما نسمع في بعض الأحيان أن الناس يكذبون فى مواقف معينة عندما يجبرون على ذلك؛ ولكن لا شيء أكثر وضوحًا في

(202) Ibid., p. 18.
(203) Ibid., p. 19.
(204) Ibid., p. 19, 20.
(205) Ibid., p. 20.

ذلك من الكتاب المقدس الذي ينص على أن الكذب هو خطيئة مميتة، وأن أي شخص يتصف بالكذب فهو مذنب حتى لو كان مقتنعًا به[٢٠٦].

ما قلته قد يبدو فلسفيًا جدًا بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا على التفكير المجرد؛ لكن كل شخص غير قادر على ملاحظة ما يمر في عقله، فيجب–على الأقل– أن يعرف الفرق بين المعرفة والإيمان، وإدراك أن الأولى تعني اليقين، والعاطفة أكثر من الإيمان لأننا في البداية نعتمد على شهادتنا الخاصة، وبالنسبة للإيمان يجب أن نثق في شهادة الآخرين، صحيح أن حواسنا تخدعنا أحيانًا، وقد تكون عقولنا مخطئة، وقد يكون حكمنا مخطئ؛ ولكن لا يزال أعظم يقين يمكن أن نتلقاه منهم؛ والسبب في ذلك أنه عندما نبدأ في الشك في عقولنا وحواسنا؛ نتأكد من عدم وجود أي شيء موحي به من عند الله غير مستثنى من ذلك، وبالتالي فكيف نثق في الوحي عندما لا نستطيع الإعتماد على الحواس التي نتلقى منها، ولا على عقولنا التي يمكن من خلالها أن نطمئن أنفسنا ونتأكد من كونه إلهًا[٢٠٧]. وبالتالي فهناك من يجادل بأن العقل البشري غير قادر على الوصول إلى الحقيقة النهائية، ومن ثم فاستنتاجاته تعد نسبية وليس أكثر من ذلك[٢٠٨].

كما جادل الشكاك بأن العقل والدين متناقضين؛ فالدين يقدم لنا الحقيقة المطلقة، والعقل البشري غير قادر على الوصول إلى هذه الحقيقة النهائية، وأن إستنتاجاته نسبية وليست أكثر من ذلك. وبعد أن إتضح الصراع بين العقل والدين فشرع المشككون في حل الخلاف حيث قالوا: إن العقل عاجز عن إعطائنا الحقيقة، فالعقل نفسه، بعجزه ذاتيًا، يبين لنا حاجته إلى الدين لتزويدنا بالحقائق التي لا نجدها في أي مكان آخر. وهكذا وضح المشككون التناقض المحتمل بين العقل والدين مع الإحتفاظ بهم في حالة توازن غير مستقرة[٢٠٩]. في حين إحتفظ اللاهوتيين بهذه القوى في حالة توازن من خلال إفتراض فكرة إملاءات العقل وإرادة الله، وكان هذا موقفًا عامًا بالنسبة للعقلانيين في هذا العصر[٢١٠].

الإلحاد والواقع المعيش عند ماندفيل:

يتناسب تحليل ماندفيل للإلحاد مع تفسيره الأعم للسلوك البشري في إطار نظام العاطفة. فالإلحاد مثل الإيمان ليس مسألة اختيار، حيث يعتمد ذلك على تنشئة المرء وبنيته العاطفية... ويعتقد ماندفيل أن العواطف هي التي تحدد الأفعال، ولكن العواطف ليست كلها متشابهة، فبعضها أكثر أهمية من غيرها، وواحدة على وجه الخصوص هي الأكثر أهمية على الإطلاق... مثل الكبرياء أو الإعجاب بالذات[٢١١]، فمثلًا شدَّد ماندفيل

(206) Op.cit. Loc.cit.
(207) Ibid., p. 48.
(208) Slack, Kevin Lee: Benjamin Franklin and The Science of Virtue, p. 48.
(209) Mandeville,Bernard: The Fable of the Bees or Private Vices, Publick Benefits, 2 vols, With a Commentary Critical, Historical, and Explanatory, p. 22.
(210) Op.cit. Loc.cit.
(211) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 225, 226.

على أن أصول المجتمع تكمن في قيم الصفات البشرية الأكثر شجاعة وبغضًا على وجه التحديد كالفخر الذاتي والكبرياء(٢١٢). ولذلك تعتمد جميع الأفعال البشرية على البنية العاطفية. والدليل على ذلك –مثلًا– ما الفائدة من إتمام الزواج إذا لم تكن هناك رغبة في الإنجاب، كما تمليه علينا الطبيعة البشرية(٢١٣).

فالإلحاد بالمعنى الحقيقي للكلمة كان حل ماندفيل لتدمير الآلهة التي كانت مصدر الإيمان بالفضيلة؛ وللقيام بذلك كان ينوي تدمير المجتمع الذي هو أصل فهم الله(٢١٤). ومع ذلك إنضم ماندفيل إلى الملحدين تحت مسمى "أسماء ممقوتة في القرن الثامن عشر الذين حكم عليهم بالموت"(٢١٥). وما لم يحدث أن يتوبوا سيكونون في معاناة ويأس غير محتملين، فهذه المخلوقات البغيضة التي لم تكن أية دولة خالية منهم على الإطلاق، والتى تتركهم دون أن تمنعهم من هذا بشرط عدم حدوث أي أذى من تجاههم، غالبًا ما يكونوا من الشباب اللامعين الذين يتم الإعتناء بهم في التعليم الليبرالي(٢١٦). فهم يستخدمون حجة الإلحاد بدافع الخوف لترشيد نمط الحياة الليبرالية(٢١٧).

منظور ماندفيل للحياة السياسية:

من الواضح أنه لم تُبذل محاولات كبيرة لتحليل فكر ماندفيل السياسي أو لإثبات موقفه تجاه السياسة المعاصرة، فضلًا عن أنه لم يكتب أبدًا عملًا سياسيًا صريحًا، بالإضافة إلى أنه لن يصمد أمام التدقيق الزائد من جانب معارضية، ولكن من خلال فحص أعماله الرئيسة يمكننا معرفة آرائه السياسية.

ومن ثم يجب التسليم بأننا لا نعرف الكثير عن أنشطة ماندفيل السياسية... وغالبًا ما إدعى أنه لن يتم جره إلى المناقشات السياسية، ويمكن بالتأكيد معرفة أنه لم يكن قط متعصبًا سياسيًا أو مؤيدًا نشطًا؛ ولكن هذا يعد غريبًا على نظرته الساخرة، بل وحتى على السخرية من الطبيعة البشرية وتقديره الواقعي للضعف البشري، ومعارضته المعلنة كثيرًا للآراء غير المتسامحة أو المتطرفة(٢١٨). ولكن على الرغم من أن

(212) Breuninger, Scott Christopher: Morals, the Market, and History: George Berkeley and Social Virtue in Early Eighteenth-Century Thought, p. 205.
(213) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 233.
(214) Slack, Kevin Lee: Benjamin Franklin and The Science of Virtue, p. 54.
(215) Mandeville, Bernard: A Treatise of the Hypochondriack and Hysterick Diseases (1730), p. 7.
(216) Mandeville, Bernard: Free Thoughts on Religion, The Church & National Happiness, p. 17.
(217) Slack, Kevin Lee: Benjamin Franklin and The Science of Virtue, p. 48.
(218) Primer, Irwin: Mandeville Studies, New Explorations in the Art and Thought of Dr. Bernard Mandeville (1670-1733), p. 81.

ماندفيل كان طيلة حياته ساخرًا من السياسة؛ إلا أنه كان يميل فكريًا إلى وجهة نظر غير ديمقراطية واستهزأ بالغوغاء الجاهلين بأنهم فلاسفة[٢١٩].

فقد رفض ماندفيل بيع نفسه على عكس العديد من الكُتَّاب الآخرين في عصره، ورفض بيع قلمه إلى أي حزب، وفي رسالة إلى ديون أعرب عن إزدرائه لمثل هذه الاختراقات الحزبية: فالخلافات التى بين هؤلاء المؤلفين أعضاء الأحزاب الذين يكتبون إما لصالح أو ضد الحكومة والوزراء؛ تَبيّن أن إهتمامهم الأكبر لما يخدم أغراضهم أكثر من إظهار الحقيقة أو الإخلاص لها؛ لأنها تعيش على الأخطاء المبتذلة وتظل على قيد الحياة بروح الفتنة والخلاف، لذلك ليس من شأنهم تصحيح الأخطاء في الرأي بل تعزيزها عندما تخدم أغراضهم[٢٢٠].

ومع ذلك حين ظهر ماندفيل على أنه مُعارض للتطرف السياسي ومُنتقد للإختراق الحزبي، فهذا لا يعني أنه كان بدون وجهات نظر سياسية أو خالي من الإلتزام السياسي؛ فهو بالفعل لم يكن يتدخل مع الأحزاب، ويكره أولئك الذين ينشرون التمرد أو الفتنة، ولكن هذه المواقف شاركه فيها معظم الكُتَّاب الذين من الواضح أنهم كانوا منخرطين بشدة في المناقشات السياسية في أوائل القرن الثامن عشر[٢٢١]. وعلاوة على ذلك هناك أدلة واضحة تبين أن ماندفيل كان واحدًا من عدد قليل من الرجال في عصره الذين قدروا الفوائد السياسية التي تمنحها وجود المنافسات والأطراف المختلفة في الفكر[٢٢٢].

جادل ماندفيل بأن تراكم الثروات لا يمكن تفسيره باللجوء إلى الفضائل الأخلاقية الحقيقية؛ بل لفهم تكوين الثروة كان من الضروري فحص عمليات الرغبة الفطرية في السلطة والتميز والمتع الحسية التي دفعت الأشخاص إلى التنافس والإحساس بالرضا الملموس الذي سعوا إليه بقوة[٢٢٣]. وذلك لأن الثروة هي أساس العظمة الدولية والحضارة المتقدمة[٢٢٤]. فقد أدرك رجال عصر التنوير جيدًا دفاعه الجريء عن الترف في الإستهلاك باعتباره شيئًا حيويًا لبقاء ونمو الدولة الحديثة المتقدمة[٢٢٥]. وهكذا يتبنى ماندفيل فكرة أن عملية الحضارة بدأت مع الإنسان في حالته الطبيعية وجهله بالإله الحقيقي[٢٢٦].

(219) Gibson, Daniel Z.: A Critical Edition of the Poems of Bernard Mandeville, p. cvcvi.
(220) Primer, Irwin: Mandeville Studies, New Explorations in the Art and Thought of Dr. Bernard Mandeville (1670-1733), p. 82.
(221) Op.cit. Loc.cit.
(222) Ibid., p. 83.
(223) Hundert, E. J.: The Enlightenment's Fable: Bernard Mandeville and the Discovery of Society, p. 19.
(224) Slack, Kevin Lee: Benjamin Franklin and The Science of Virtue, p. 55.
(225) Primer, Irwin: By a Society of Ladies: Essays in The Female Tatler by Bernard Mandeville and M.M. Goldsmith, History of Political Thought, Imprint Academic Ltd, Vol. 21, No. 4, 2000, p. 746. For more see, Bernard Mandeville: By a Society

وعلاوة على ذلك كان هذا الإنجاز المضاعف من وجهة نظر ماندفيل شرطًا ضروريًا للسلام الاجتماعي النسبي، وقواعد العدالة المطبقة بشكل روتيني، تلك التي ميزت الحضارات المتقدمة عن أسلافها الهمجية. حيث إن الإدارة الحاذقة أو البراقة للسياسيين الماهرين –فقط– يمكن أن تعمل على استقرار الصراع الناشئ الذي لا يمكن إختزاله... ووفقًا لماندفيل فإن جميع الدول المتحضرة لا تدين بقواعدها أو أسسها إلى الأفعال الاخلاقية للمشرعين الفاضلين، ولكن إلى قدرة الأقليات القوية والماكرة على ترويض وتأديب المشاعر المتصدعة للجمهور المتوحش(٢٢٧).

لذلك فإن الشيء الأساسي الذى سعى إليه المُشرِّعون والحكماء –الذين عملوا بجد من أجل تأسيس المجتمع– هو أن يجعلوا الناس الذين سيحكمونهم يؤمنون بأن من الأكثر فائدة لكل امرء أن يتغلب على شهواته عن أن ينغمس فيها، ومن الأفضل أن يراعى المصلحة العامة(٢٢٨).

فقد لاحظ بعض السياسيين الطبيعة البشرية عن كثب؛ وخلصوا بحق إلى أن جميع الناس يُسحَرون بشكل طبيعي من خلال الثناء والخوف من الإزدراء. ولذلك إخترعوا صورة رائعة للإنسان كمخلوق متفوق على جميع الحيوانات الأخرى، وأنه الشخص الذي يكمن مجده الرئيس في قدرته على السعي لتحقيق الرفاهية العامة وغزو عواطفه الخاصة(٢٢٩).

فقد ذهب بعض الخصوم البرلمانيون إلى التأكيد على أن القوانين صُممت لإنقاذ "غير الملتزمين" من عبودية الإرادة والعواطف... حتى إن بعض المعارضين قد وافقوا على أن العقل السليم يجب أن يتحكم في العواطف... بالإضافة إلى أن جميع الفلاسفة ينسبون ضعف الجسد إلى الروح، تلك التي كان ينبغي عليها أن تحكمه وتديره بشكل أفضل مع تضامن العقل ولكنها لم تفعل ذلك. لذا تعتمد الحياة الصحية وكذلك الحياة الجيدة على ممارسات العقل السليم، وينطبق الشيء نفسه على الكيان السياسي(٢٣٠).

أما فيما يخص الحكومة فلا يوجد أي توافق بالإجماع بين البشر على شيءٍ إلا على أنه لابد من وجود حكومة في المجتمع المدني، ولكن حتى يومنا هذا لم يقرر أي نوعٍ من الحكومة هو الأفضل. فمن المؤكد

---

of Ladies: Essays in The Female Tatler, ed. M.M. Goldsmith, University of Durham and Thoemmes Press, Bristol, 1999.

(226) Ryerse, Barbara R.: Some Aspects of Browning's Satire: Browning, Donne, and Mandeville, p. 220.

(227) Hundert, E. J.: The Enlightenment’s Fable: Bernard Mandeville and the Discovery of Society, p. 19.

(228) Mandeville, Bernard: An Enquiry Into The Origin Of Moral Virtue, p. 28.

الترجمة العربية، ص ١٣.

(229) Colman, John: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, p. 126.

(230) Cook, Harold J.: Bernard Mandeville and the Therapy of "The Clever Politician", p. 110 , 111.

أنه لا يوجد أى شكل من أشكال الحكم إلا وكان له بعض المظالم والمفاسد الخاص به تلك التي لا يتحملها الآخرون. وبالتالي يتم تجنب بعض التجاوزات لكل واحدة منهم سواء كليًا أو جزئيًا. ومن الأمور التى يتفق عليها الكثيرون هو أن الحكومات البسيطة التي لم يتم الشكوى منها بشكل مبالغ فيه هي: الملكية والأرستقراطية والديمقراطية(٢٣١).

فجميع الرعية مدينون بطاعة غير محدودة للقاضي الأعلى في جميع الممالك والولايات والإمارات أيا كانت؛ حيث إنه لا يمكن لأي شكل من أشكال الحكم أن يستمر دون حكم تعسفي. ففي جميع نماذج الحكم الثلاثة البسيطة يستحق الحاكم هذا الولاء والطاعة غير المحدودة(٢٣٢). وقد أكد الرجال الطموحون على أن الطاعة لابد أن تقدم من خلال الشعب، وأن شخص الملك مسئول عن جرائم الأخرين إذا ارتكبت بأمره(٢٣٣).

وبالنظر إلى وجهة نظره المتشائمة حول الطبيعة البشرية، فليس من المستغرب أن تجده يجادل بأن الفساد في السياسيين أمر لا مفر منه، وأن توقع الوزارات دون أخطاء والمحاكم بدون الرذائل هو خيانة جسيمة تخص شئوننا الإنسانية"(٢٣٤). فقد جادل بأن من كان يُنظر إليهم سابقًا على أنهم عديمي الضمير السياسي أصبح لا مفر منهم في ظل ظروف الثراء الحديثة(٢٣٥).

ومن ثم كانت الفكرة القائلة بأن الفساد أمر لا مفر منه وأنه يجب قبوله فلسفيًا بمثابة لعنة على معارضة البلد. فقد جادلوا بأنه لم يتسبب فقط في تلطيخ نقاء الدستور بل هدد بتعفن نسيج المجتمع نفسه(٢٣٦).

يذكر ماندفيل أنه لا يوجد مبدأ مسيحي لا يمكن لسياسي ماهر أن يستغله في أغراض معادية للمسيحية. وهذا يفسر معارضة ماندفيل الكبيرة لرجال الدين، وأن الخطأ الشائع الذي أُرتكب هو الإعتقاد بأن الكهنة أفضل من الناس العاديين. وإننا هنا بدلًا من ذلك يجب أن نضع في الإعتبار أن رجال الدين مخلوقون من القالب نفسه ولديهم الطبيعة الفاسدة نفسها كما للرجال الأخرين؛ وذلك لانهم قد ولدوا بنفس العيوب وبالتالي خضعوا للعواطف والإغراءات نفسها(٢٣٧). وبذلك يصر ماندفيل على أن السلطة والنفوذ كانتا أدوات خطيرة في

(231) Mandeville, Bernard: Free Thoughts on Religion, The Church & National Happiness, p. 167.
(232) Op.cit. Loc.cit.
(233) Ibid., p. 168.
(234) Speck, W. A.: Bernard Mandeville and the Middlesex Grand Jury, p. 371.
(235) Mandeville, Bernard: A Treatise of the Hypochondriack and Hysterick Diseases (1730), p. 9.
(236) Speck, W. A.: Bernard Mandeville and the Middlesex Grand Jury, p. 372.
(237) Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), p. 235,236.

أيدي رجال الكنيسة... وذلك لأن كل رجال الدين تعرضوا للإضطهاد مما أدى الى غضبهم وإستخدامهم للسلطة(٢٣٨).

ومن هنا يتمثل الحل السياسي الذي حدده ماندفيل –في الأفكار الحرة– في إقتراح كنيسة وطنية تسمح بتطبيق التسامح الداخلي الواسع، ومثل هذا الإقتراح يساعد على إزاله الدين من العلاقات الاجتماعية؛ مما يجعل الكنيسة بعيدة الصلة على المستوى الاجتماعي والسياسي(٢٣٩).

إن موقف ماندفيل يمكن إعتباره نوعًا من الحل الوسط؛ فهو يقدم فكرة الكنيسة الوطنية مع بعض الإمتيازات؛ مثل الإعفاء من الضرائب على دخلها أو السيطرة على المعابد والمدارس العامة... وإلى جانب ذلك لا يحق لرجال الدين في الكنيسة الوطنية ملاحقة الزنادقة. ففي الواقع الأمر متروك للحكومة وليس لرجال الدين، لتقييم مدى خطورة الطائفة الدينية على الدولة... تلك التي يجب أن تكون يقظة وأن تحرص على النفع العام الذي يجب ألا يقع به أي ضرر من الحيل الخفية التي تتم تحت ذرائع دينية(٢٤٠). ولكن لماذا نجعل دائمًا من اهتمامنا بالدين عباءة تخفي مقاصدنا الحقيقية ونوايانا الدنيوية؟(٢٤١).

فقد نما من خلال الملاحظة أن دعوة ماندفيل للإعتدال temperance ثابتة طوال حياته(٢٤٢).النعمة التى أشير إليها هى ما يجب على كل المسيحيين الصالحين أن يصلوا من أجلها؛ أي أن يكون جميع الأمراء والحكومات موفين لوعودهم وعادلين تجاه بعضهم البعض وكذلك تجاه رعاياهم، وأن يكون لديهم اهتمام بما يمليه الضمير والدين أكبر من اهتمامهم بمقتضيات السياسة والحكمة الدنيوية، وأن يفضلوا الشرف والسلامة والسلام وأمن البلاد التى يحكمونها عن حبهم الشخصى للمجد وروح الانتقام والجشع والطموح(٢٤٣). فلكي نكون عادلين أو معتدلين فلدينا بعض الإغراءات التي يجب أن نواجهها وبعض الصعوبات التي يجب التغلب عليها(٢٤٤). حيث إن الإنسان فى حقيقته حيوان جبان ليس مفترسًا بالطبيعة؛ يحب السلام والهدوء ولن يقاتل أبدًا إذا لم يتعدَّ عليه أحد واستطاع الحصول على ما يدافع عنه أجله دون قتال(٢٤٥).

(238) Ibid., p. 236.
(239) Op.cit. Loc.cit.
(240) Ibid., p. 237.
(241) Mandeville, Bernard: Essay On Charity And Charity-Schools, p. 354.
الترجمة العربية، ص ١٣٧.
(242) Anderson, Paul Bunyan: Bernard Mandeville on Gin, p. 778.
(243) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, p. 423.
الترجمة العربية، ص ٧٠.
(244) Mandeville, Bernard: An Enquiry into the Origin of Honour and the Usefulness of Christianity in War, p. 2.
(245) Mandeville, Bernard: A Search Into The Nature Of Society, p. 401.

وبذلك فإن ازدهار جميع المجتمعات يستلزم أن يتحقق على يد أفرادها هؤلاء الذين يكونون أقويا وأشداء فى المقام الأول وغير معتادين أبدًا على الراحة والكسل، وفى المقام الثانى سريعًا ما يرضون بتوافر الضروريات الأساسية للحياة(٢٤٦).

الترجمة العربية، ص ٥٢.

(246) Mandeville, Bernard: Essay On Charity And Charity-Schools, p. 326.

الترجمة العربية، ص ١١٤.

الخاتمة

وهي عبارة عن النتائج التي استخلصناها من فلسفة برنارد ماندفيل في الحياة:

- إن فلسفة ماندفيل تحتوي على عناصر متناقضة كما أكد على ذلك العديد من القراء والنقاد منذ القرن الثامن عشر؛ ومن ثم يتماشي الفكر النقدي الذي قدمه مع ذوق العصر الحالي، بل ويعد واحدًا من أسباب موجة الإهتمام الجديدة التي يثيرها. فقد ذهب إلى أن حكم أنفسنا وفقًا لإملاءات العقل هو أفضل بكثير من الإنغماس في العواطف دون توقف أو تحكم. وهو بذلك طرح فكره بأسلوب تم فيه الجمع بين أكثر التعابير قوة ونضارة وحيوية مع الحِكم السديدة مع التحكم في الإيقاع والنبرة، وهو أسلوب يجمع فيه بين العامية والبلاغة في وقت واحد، مع الإحتفاظ بتدفق الكلام السهل والمألوف، حيث إنه لا يفشل أبدًا في إجراء أكثر التحليلات تعقيدًا بشكل طبيعي وملموس في الحياة.
- إن حياتنا تتكون من أشياء متناقضة ومختلفة أيضًا كالنغمات: هادئة وصاخبة، وذلك لأنه لا يعقل أن نحب أو نسمع الموسيقي مثلًا بنوع واحد من النغمات؛ ومن ثم يجب أن نعرف كيفية إستخدامها ومزجها معًا، كما يجب أن نتعامل مع الخير والشر الذي له الأهمية نفسها في حياتنا.
- إن الحياة الأسمى للإنسان، كما افترض ماندفيل، هي مجرد خيال صنعه الفلاسفة والحُكَّام لتبسيط مفهوم الحكومة والعلاقات فى المجتمع، ومن هنا أثارت فلسفته الكثير من الاستياء فى زمنه، وكثيرًا ما وُصمت بأنها زائفة ومخزية وعديمة الحياء. وقد ركزت مناقشاته على أن الإنسان عندما يفعل أي شيء دائمًا ما تكون أفعالة نابعة ومرتكزة على مصلحته أولًا ثم مصلحة الأخرين بعد ذلك.
- إعتقد ماندفيل أنه لا يمكن أن تكون هناك فضيلة بدون إنكار الذات، وهذا يمكن إعتباره إدعاءًا واقعيًا بأن الطبيعة البشرية لن تؤدي بشكل طبيعي إلى الأعمال الخيرة، ومن ثم تم رفض وضع اسم الفضيلة على أي عمل يتضمن عنصر إحترام الذات، لأن حب الذات كان يُنظر إليه على أنه غير متوافق مع حب الإنسان وتمسكه بالله. حيث إن "الحب شغف والشغف رغبة ويجب ألا تكون لدينا رغبات"، ومن خلال ملاحظاتنا عن خرافة النحل نجد أن المؤلف قد حدد الحب على أنه شغف مركب مصنوع من عواطف متناقضة ممزوجة في آن واحد.
- إن ماندفيل لم يكن مهتمًا بتقديم وجهة نظر أخلاقية جوهرية عندما قدم فكرة "الرذائل الخاصة والمنافع العامة"؛ بل كان معنيًا بكشف تناقض ونفاق أولئك الذين حاولوا في مجتمعه الإحتفاظ بأخلاقيات الزهد والنفعية في وقت واحد. وقد أظهر جدله، بطريقة لاذعة ومميزة، السخافات التي نتجت عن هذه المجموعات. وبالتالي لا يمكن أن نشكك في إهتمامه بظاهرة السلوك الأخلاقي، ولكنه يهتم به كموضوع منفصل تمامًا عن المشاعر الدينية. فالدين يولد من الخوف، وبالتالي فهو مكون غير قابل للإزالة من الطبيعة البشرية.
- إن ما كشف عنه ماندفيل هو أن المجتمعات المتحضرة لا تنمو ولا تزدهر بسبب فضائلها، ولكن من خلال رذائلها طالما كانت تدار بحكمة من قِبل أشخاص أكفاء في السلطة، حيث إنه إدعى أن الرذائل مفيدة للوصول

الى حالة مزدهرة. فضلًا عن أنه لا توجد مجتمعات نبعت من فضائل الإنسان اللطيفة وخصاله الرقيقة، بل على العكس من ذلك لابد أنها جميعًا تستمد أصولها من احتياجاته ونواقصه وتعدد شهواته ورغباته في الحياة.

- قام ماندفيل بوصف خصائص كل مجموعة من النحل وبيَّن كيف تتجلى تلك الصفات المميزة على الشخصيات في بعض الأنواع مثل: المحامون الذين قاموا بتقسيم الأجور أو الأتعاب وتأخير الجلسات والدفاع عن قضايا الأشرار، والأطباء الذين إكتسبوا الشهرة والثروة من خلال صحة مرضاهم وهكذا.
- ذهب ماندفيل إلى أنه كلما كان لدى الإنسان رغبات أقل في حياته وكلما قل ما يشتهيه؛ كلما كان أسهل على نفسه بكثير وكلما زاد نشاطه لتوفير احتياجاته وكلما كان محبوبًا أكثر فى عائلته وأقل إثارة للمشاكل وكلما زاد حبه للسلام والوئام وكلما زاد بّرهُ وإحسانه نحو جيرانه وكلما زاد تألقه بالفضيلة الحقيقية، وكلما كان مقبول نسبيًا عند الله والإنسان.
- أصر على أنه لا توجد معايير مطلقة سواء في الأخلاق أو الدين أو الجمال مثلها مثل الموضة ؛ ولكن هذه النسبية أو ما يطلق عليها النزعة البيرونية لم تكن سلبية مجردة أو مدمرة. حيث إن إعجابنا أو عدم إعجابنا بالأشياء يعتمد بشكل أساسي على الموضات والعادات، وبالتالي فإن مفهومه في تحليل للطبيعة البشرية مشابه ليس فقط في أسلوب معالجته الساخر المتعمد، ولكن في نغمة السخرية في خرافة النحل والميل للواقعية الحادة في الحياة.
- ركز ماندفيل على مدى أهمية الحصول على المعلومات المهمة في الوقت المناسب والقراءة الجيدة والمتابعة للأحداث، وذلك لأن قصير النظر في سلسلة الأسباب نادراً ما يرى أبعد من حلقة واحدة، ولكن أولئك الذين يستطيعون توسيع وجهة نظرهم، والذين يمنحون أنفسهم وقت أكبر في التأمل والتدقيق في إحتمالات الأحداث المتسلسلة قد يرون في مائة مكان توقعات جيدة؛ ومن هنا استنتج أنه إذا كان من الواجب على أفراد المجتمع أن يكونوا جيدين بالمعنى الرواقي؛ فإن هذا المجتمع المثالي لا يمكن أن يعيش على المدى الطويل بدون رذائل الإنسان في هذه الحياة.
- إن موقف ماندفيل يمكن إعتباره نوعًا من الحل الوسط؛ فهو يقدم فكرة الكنيسة الوطنية مع بعض الإمتيازات؛ مثل الإعفاء من الضرائب أو السيطرة على المعابد والمدارس العامة، وإلى جانب ذلك لا يحق لرجال الدين في الكنيسة الوطنية ملاحقة الزنادقة، وذلك لأن الأمر متروك للحكومة وليس لرجال الدين، لتقييم مدى خطورة الطائفة الدينية على الدولة التي يجب أن تكون يقظة وأن تحرص على النفع العام وألا يقع به أي ضرر من الحيل الخفية التي تتم تحت ذرائع دينية، فقد تعجب ماندفيل من الذين يجعلون من إهتمامهم بالدين عباءة تخفي مقاصدهم الحقيقية ونواياهم الدنيوية في تلك الحياة.

References

أولًا: المصادرر العربية:

ماندفيل، برنارد: ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة، ترجمة: يوسف، عبدالرحيم، دار صفصافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٨م.

ثانيًا: المصادر والمراجع الأجنبية:

- ***Anderson, Paul Bunyan***: Bernard Mandeville on Gin, Modern Language Association, PMLA, Vol. 54, No. 3, 1939.
- ***Bernard Mandeville***: By a Society of Ladies: Essays in The Female Tatler, ed. M.M. Goldsmith, University of Durham and Thoemmes Press, Bristol, 1999.
- ***Bredvold, Louis I***.: The Fable of the Bees: Or Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville and F. B. Kaye, The Journal of English and Germanic Philology, University of Illinois Press, Vol. 24, No. 4, 1925.
- ***Bragues, George***: Business Is One Thing, Ethics Is Another: Revisiting Bernard Mandeville's "The Fable of the Bees", Cambridge University Press, Business Ethics Quarterly, Vol. 15, No. 2, 2005.
- ***Breuninger, Scott Christopher***: Morals, the Market, and History: George Berkeley and Social Virtue in Early Eighteenth-Century Thought, A Dissertation Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy (History), At The University of Wisconsin-Madison, 2002.
- ***Clark, George***: Bernard Mandeville, M. D., And Eighteenth-Century Ethics, The Johns Hopkins University Press, Bulletin of the History of Medicine, Vol. 45, No. 5, 1971.
- ***Cook, Harold J***.: Bernard Mandeville and the Therapy of "The Clever Politician", University of Pennsylvania Press, Journal of the History of Ideas, Vol. 60, No. 1, 1999.
- ***Coats, A. W***.: The Social Thought of Bernard Mandeville. Virtue and Commerce in Early Eighteenth-Century England. by Bernard Mandeville and Thomas A. Horne, The Historical Journal, Cambridge University Press, Vol. 21, No. 4, 1978.

- ***Colman, John***: Bernard Mandeville and the Reality of Virtue, Cambridge University Press on behalf of Royal Institute of Philosophy, Vol. 47, No. 180, 1972.
- ***Drennon, Herbert:*** Bernard Mandeville, High Priest of Paradox, Mississippi State University, The Mississippi Quarterly, Vol. 8, No. 4, 1955.
- ***Gibson, Daniel Z***.: A Critical Edition of the Poems of Bernard Mandeville, A dissertation submitted to the Graduate School of the University of Cincinnati in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, 1939.
- ***Hoss, Lewis:*** Reconciling Naturalism and Theology in the Political Thought of Bernard Mandeville, A Thesis Submitted to the Graduate School in Partial Fulfillment of The Requirements for the Degree Master of Arts, Department of Political Science, Northern Illinois University, Dekalb, Illinois, May 2016.
- ***Hundert, E. J.:*** The Enlightenment's Fable: Bernard Mandeville and the Discovery of Society, Cambridge: Cambridge University Press, First published, 1994.
- ***Kaye, F. B.:*** The Influence of Bernard Mandeville, University of North Carolina Press, Studies in Philology, Vol. 19, No. 1, 1922.
- ***Mandeville, Bernard***: The Fable of the Bees or Private Vices, Publick Benefits, with an Enquiry Into The Origin Of Moral Virtue, and, Essay On Charity And Charity-Schools, and, A Search Into The Nature Of Society, To which is added A VINDICATION of the BOOK from the Afperfions contain'd in a Prefentment of the Grand-Jury of Middlefex, and an abufive Letter to Lord C, Printed for J. Tonson, at Sbakefpear's-Head, over-againft Katharine-Street in the Strand, LONDON: MDCCXXIV, The Third Edition.
- ***Mandeville, Bernard***: An Enquiry into the Origin of Honour and the Usefulness of Christianity in War, Produced by: David King, Stan Goodman, and Charles Franks, The Project Gutenberg EBook, 1971.
- ***Mandeville,Bernard:*** The Fable of the Bees or Private Vices, Publick Benefits, 2 vols, With a Commentary Critical, Historical, and Explanatory, by: Frederick

Benjamin Kaye, Oxford: At the Clarendon Press, MDCCCCXXIV, A Project Of Liberty Fund, Inc, Vol. 1, 1988.

- ***Mandeville, Bernard***: Mandeville on the Sources of Wealth, Population Council, Population and Development Review, Vol. 17, No. 2, 1991.
- ***Mandeville, Bernard***: Free Thoughts on Religion, The Church, & National Happiness, edited by: Irwin Primer, Transaction Publishers, New Brunswick (U.S.A.) and London (U.K.), 2001.
- ***Mandeville, Bernard***: A Treatise of the Hypochondriack and Hysterick Diseases (1730), Editor: Sylvie Kleiman-Lafon, University of Paris VIII, Saint-Denis, France, International Archives of the History of Ideas 223, Springer International Publishing, AG, 2017.
- ***Miller, Peter N***.: Citizenship and Culture in Early Modern Europe, University of Pennsylvania Press, Journal of the History of Ideas, Vol. 57, No. 4, 1996.
- ***Monro, Hector***: The Ambivalence of Bernard Mandeville, Oxford, Clarendon Press, 1975.
- ***Primer, Irwin***: By a Society of Ladies: Essays in The Female Tatler by Bernard Mandeville and M.M. Goldsmith, History of Political Thought, Imprint Academic Ltd, Vol. 21, No. 4, 2000.
- ***Perry, C. M***.: Review: The Fable of the Bees by Bernard Mandeville and F. B. Kaye, The University of Chicago Press, International Journal of Ethics, Vol. 36, No. 4, 1926.
- ***Primer, Irwin***: Mandeville Studies, New Explorations in the Art and Thought of Dr. Bernard Mandeville (1670-1733), Rutgers University, Newark, Martinus Nijhoff, The Hague, 1975.
- ***Primer, Irwin***: Bernard Mandeville's "A Modest Defence of Publick Stews", Prostitution and Its Discontents in Early Georgian England, Palgrave Macmillan, First published, 2006.
- ***Prendergast, Renee***: Knowledge, innovation and emulation in the evolutionary thought of Bernard Mandeville, Oxford University Press, Cambridge Journal of Economics, Vol. 38, No. 1, 2014.

- ***Pires, Edmundo Balsemao and, Joaquim Braga***: Bernard de Mandeville's Tropology of Paradoxes, (Morals, Politics, Economics, and Therapy), Studies in History and Philosophy of Science, Volume 40, Springer Cham Heidelberg New York Dordrecht London, 2015.
- ***Reed, A. W***.: Review: The Fable of the Bees: Or, Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville, Oxford University Press, The Review of English Studies, Vol. 1, No. 3, 1925.
- ***Ryerse, Barbara R***.: Some Aspects of Browning's Satire: Browning, Donne, and Mandeville, Submitted in partial fulfilment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, Department of English, Faculty of Graduate Studies, The University of Western Ontario, London, Ontario, August, 1989.
- ***Slack, Kevin Lee***: Benjamin Franklin and The Science of Virtue, A Dissertation Submitted to The Graduate Faculty of the University of Dallas in Partial Fulfillment of Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy In Politics in the Institute of Philosophic Studies, the Braniff Graduate School of the University of Dallas, April, 2009.
- ***Speck, W. A.:*** Bernard Mandeville and the Middlesex Grand Jury, The Johns Hopkins University Press. Sponsor: American Society for Eighteenth-Century Studies (ASECS), Vol. 11, No. 3, 1978.
- ***Smith, G. C. Moore***: The Fable of the Bees: Or, Private Vices, Publick Benefits by Bernard Mandeville, The Modern Language Review, Modern Humanities Research Association, Vol. 20, No. 4, Oct., 1925.
- ***Wood, Michael Boyd***: "Whom Only Vanity Intices" Bernard Mandeville and British Philosophy in the Augustan Age, A Dissertation Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Doctor of Philosophy Degree, Department of Philosophy in the Graduate School, Southern Illinois University, May 1979.